زوجات أبي

obeikan.com

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشر والتوزيع والدعاية
دار دلتا للنشر

رئيس مجلس الإدارة

المحاسب

أحمد التلاوي

الناشر

سليمان القلشي

مستشار النشر

أحمد سويلم

مدير النشر

محمد هشام عبيه

الطبعة الأولى
الكتاب: زوجات أبي
المؤلف: نبيل عمر
تصنيف الكتاب: رواية
تنفيذ داخلى : محمود رمضان
تصميم الغلاف : عادل صبري
رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٥٢٠٤
الترقيم الدولي: ٨-٢٦-٦٦٠٥-٩٧٧-٩٧٨

العنوان : ١شارع ابن مروان - أمام مجلس الدولة الدقي
التليفون : 02/37483557
email : delta4books@gmail.com

obeikan.com

نبيل عمر

زوجات أبي

رواية حياة

دلتا للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

(١)
أمي سر الحضارة

ذات مساء حار ورطب من شهر أغسطس عام ١٩٦٧، أيقنت بأننا سوف نقهر إسرائيل ونرد لها الصاع صاعين، ولم يكن مر على ٥ يونيو إلا بضعة أسابيع، ومصر كلها تتجرع مرارة الهزيمة، وسواد الليل الحالك قابض على أنفاس المصريين يكاد يكتمها.

كنت أستعد لاستكمال امتحانات الإعدادية التي أوقفتها حرب يونيو، وسهرت أمي معي ونَسًا وتشجيعاً، وكنا نتسامر أحياناً، وحكت لي هذه القصة المدهشة التي تفسر سر الحضارة المصرية القديمة التي نتباهى بها، فهي ليست الأهرامات ولا أبا الهول ولا المعابد الهائلة، ولا الألوان الزاهية التي لم تستطع عوامل التعرية الجبارة أن تطفئ وهجها، ولا التحنيط، ولا مراكب الشمس، هي الجينات التي نتوارثها، وتمنح فلاحة مصرية وعياً لم تتعلمه من أحد قط.

وأمي «عزيزة خطاب»، فلاحة مصرية، من قرية تبعد عن القاهرة ستين كيلومتراً شمالاً، وشرق بحر شبين، على طريق داخلي ما بين الباجور وشبين الكوم، قرية لها اسم عجيب «كفر مناوهلة»، حاولت مراراً أن أعرف مصدره، وكيف اكتسبته، وفشلت، الكَفر كلمة معروفة، وهي القرية الصغيرة محدودة السكان، أما مناوهلة، فلم أعرف لها معنى محدداً..

أمي من أسرة فقيرة، الأب «خولي» في عزبة الست، على بعد كيلومترين من الكَفر، مات صغيراً وترك ولدين وأربع بنات وأمهم دون معاش، يسكنون

داراً على ناصية حارتين، في مدخل القرية، تظللها شجرتا توت عملاقتان، الأخ الأكبر «لافت» عليه بنت تكبره في العمر، وجرجرته معها إلى مصر، وعاش في روض الفرج، وانقطع عن أهله، والأخ الأصغر مراكبي يغيب في النيل بالشهور بين الصعيد وبحري، والبنات الأربع لا حظ لهنّ من تعليم، وكنّ يعملن في عزبة الست بالأجر، والأمُّ كليلة النظر تقوم بأعمال الدار حتى ترجع البنات بما يحفظ دوام القوت.

ذاك حدث في الأربعينيات من القرن الماضي، وكان عدد المتعلمين في قرية أمي لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، حاصلين على البكالوريا وموظفين في الحكومة، فما بالك بالبنات، كان الفقر تنيناً جامحاً فارداً أجنحته القوية على ريف مصر، البيوت طينية كالحة، الناس تمشى حفاة في الطرقات، وجلابيبهم المتسخة بها رتوق، النقود شحيحة كشح الدفء في برد الشتاء القارص، لا كهرباء، لا ماء نظيفاً، الحياة تكاد تكون بدائية، أو أقرب إلى شكلها الأول، القرية تبدو معزولة عن العالم إلا قليلاً، بالرغم من أن العاصمة لا تبعد إلا ساعة بالأتوبيس المارّ على الزراعية، أو ساعة ونصف الساعة إذا عبر المسافر بحر شبين وركب من «كوم الضبع» غرباً، لا راديو إلا في بيت العمدة وشيخ الخفر وعائلتين من أصحاب الطين.

وتزوجت «عزيزة خطاب» وهي في السادسة عشرة من أبي بالمصادفة..

أبي من أسرة مقتدرة ذات صيت وسمعة، لها عمودية «قرية إبخاص» منذ نشأتها، و«إبخاص» على بعد فركة كعب من «الباجور» شرقاً، والاسم له حكاية تاريخية، ويعود إلى فرسان مهاجرين من جورجيا مع نهاية الحروب الصليبية بنوا معسكراً لهم، فسُمي المكان باسمه، ثم انتصبت دُور عائلتي وبيوت المزارعين المشتغلين في أرضهم مكونةً القرية.

جدي عمر عبد الجليل حاصل على «العالِمية» من الأزهر الشريف، وله خمسة من الإخوة الصبية، اقتسموا ميراث عبد الجليل الكبير، ونشبت خلافات

عنيفة بينهم على المراوي وحدود الأرض، وكان «عمر» مكسور الجناح؛ لأنه أبو البنات، خِلفته كلها بنات في بنات، وتزوج من النساء تسع كلهن أنجبن بناتٍ، تجاوز عددهن الدستة، وفي الخمسين من عمره تزوج من جدتي، وكان فارق السن بينهما أكثر من ثلاثين عاماً، فولدت له بنتين ثم جاء الولد «المنتظر»، ولكم أن تتخيلوا كيف تعامل أبو البنات اللائي عددهن في الليمون مع «المنتظر»، دلع وتدليل على الآخر، حتى في الاسم، إذ أضاف وصف «السيد» قبل «رجب»، تيمناً بـ«سيدي رجب» وهو شيخ يقال إنه حارب مع أحمد عرابي في التل الكبير، واستشهد هناك، وحين حمل المُعَزُّون نعشه كان يجرى إلى القبر كما لو أنه يطير، وله مولد سنوي باسمه ومقام يطوف المُريدون حوله، وبثّت الإذاعة المصرية تاريخه سهرة درامية في الستينيات.

كان جدي يؤلمه هاجس سيطر عليه، أن يموت قبل أن يرى ابنه «الحيلة» رجلاً صلباً، وظنّ أن معاملته كرجل تجعله رجلاً، وهو ما زال صبياً، فعلّمه عادة التدخين أمامه قبل أن ينبت شاربه، كما أخبرتني جدتي، وخطب له مرتين وهو ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة، ويستجيب دوماً لطلباته، حتى لو كانت لبن العصفور، فأفسد الصغير، ونقش في وجدانه أن رغباته أوامر، وأنه مركز الدائرة ومحل السيادة الأول، فكبر يتصرف على هواه وحسب ما اتفق.

وذات مرة صفع مدرس المدرسة الابن المدلل بالقلم، فاشتاط جدي غضبًا، وذهب إلى المدرسة وأهان المدرس، وأغلق المدرسة التي كانت تملكها عائلته، ثم أعيد فتحها بعد يومين.

ومات الأب، وبقي الابن وحيداً، ثروة تتآكل، ولا شُغلة ولا مَشغلة، فأخذه خاله إلى «سبك الضحاك» ليعمل معه في التجارة، فكان يجوب القرى بيعاً وشراءً، وفي جولة من جولاته تعرف على أمي وتزوجها، وعاد بها إلى «إبخاص» بضعة أشهر، ثم عاش معها في شبين الكوم.

وحين حملت أمي بي، صنعت حصالة خشبية بقفل، وراحت من وراء أبي

الذي كان على سفر طويل «تحوش» قرشاً في شلن في بريزة، في ريال، والبريزة عشرة قروش والريال ضعفها، كان القرش وقتها يشترى عشر بيضات، وأجرة الشقة «المحترمة» في شبين من حجرتين وصالة مائة وعشرين قرشاً شهرياً.

وعند الولادة طلبت أمي من الداية أن تضع «خُلاص» الوليد وهو بقايا القطع الدموية من الولادة، في علبة صفيح إذا كان صبياً، وتغلق عليها بـ«الغطا» وتضعها تحت السرير، وبعد أيام أرسلت إلى قريب لها جاءها من «كفر مناوهلة»، وأخرجت الصندوق الخشبي، ووضعت في يده جنيهين –وهو مبلغ كبير وقتها– وأخرجت له «علبة الصفيح بالخلاص مغطاة وملفوفة بإحكام بحبل وقماش، وقالت له:

– تأخد الصندوق وتنزل على مصر، وتروح جامعة فؤاد، وتدفن العلبة الصفيح في سور الجامعة.

وأخرجت له المصحف، وأجبرته أن يُقسم عليه ثلاث مرات، فأقسم ونفّذ الوصية، وجامعة فؤاد الأول هي جامعة القاهرة حالياً قبل أن تبدّل ثورة يوليو اسمها في سبتمبر ١٩٥٣.

في تلك الليلة روت أمي لي هذه الحكاية العجيبة، فسألتها:

– ولماذا فعلتِ ذلك؟!

قالت:

– كنت أمدّ علاقتك بالجامعة «عشان» لما تكبر تدخلها.

ومن يومها وتلك الأسئلة سكنت عقلي: من أين علمت أمي أن التعليم هو سلم الصعود لابنها، وهي لم تتعلم ولا واحد في عائلتها تعلم بالجامعة ولا في قريتها؟!، هل الشهور الأولى التي قضتها في قرية أبي كانت كافية لتدرك قيمة التعليم، وقد تعرفت على عائلته المتعلمة وبعضها سافر في بعثات للخارج، وتريد أن ترى ابنها مثلهم؟ ومن أين أتتها هذه الفكرة الجهنمية حتى لو كانت

من قبيل الغيبيات لدفن «خلاص» ولدها في سور جامعة لم ترها أبداً، ولا تعرف عنها شيئاً بالمرة؟، كيف رأت في تعليم ابنها تعويضاً لجدي الذي مات دون أن يُعلّم ابنه الوحيد بسبب الدلع والتدليل؟

obeikan.com

obeikan.com

(٢)
زوجـات أبي

كنا في عزّ «طوبة»، الريح لها صرير ينفذ من خلف الشبابيك والأبواب والأغطية الثقيلة، حين استيقظت قبل الفجر، ذاهبًا إلى الحمام، وجدتُ أمي تضع رأسها تحت ماء الصنبور، ذُهلت، اقتربتُ منها متسائلاً:

– الماء ثلج؟

ردّت بحزن خلع قلبي:

– نار قايدة في دماغي.

كنت صغيراً، في التاسعة من عمري، اقتربتُ منها، طبطبت على ظهرها، احتضنتُها، مسحتُ دموعاً عزيزةً تنساب على خدّيها بغزارة، قلتُ لها:

– لن يضيع تعبك هدراً.

قالت بثقة:

– متأكدة، وهذا سبب صبري وتحمّلي.

كان أبي قد تزوّج للمرة الثالثة أو الرابعة، لا أذكر على وجه الدقة.

كان يؤلمها زواجه كل مرة، لكن لم يكن سر عذابها أو النار المشتعلة في رأسها، وإنما صورة الأيام السوداء التي ستحلّ بِنَا، قد تطول أسابيع، وربما بضعة أشهر، يغيب فيها عنا، ويختفي مثل فصح ملح ذاب، لا نعرف له طريقاً ولا سكة، وفي كل مرة كنا ننتقل من بيتنا ونسافر بعفشنا لنعيش مع جدتي تفيدة

obeikan.com

وخالتي مَنْبِية في «كفر مناوهلة»، حتى يتذكرنا ويعود إلينا عودة الغائب من هجرة طويلة، محملاً بهدايا وألعاب ولحوم وأقفاص فاكهة وأشياء أخرى، متصوراً أنه يُكَفِّر عن ذنبه، وكأن شيئاً لم يكن!

لم تردّه أمي أبداً، فأين تذهب بالصبيان الأربعة؟

زوجة أبي تلك كان اسمها «جميلة»، لم أرها، وكانوا يتحدثون عن جمالها، وقد تعرّف أبي عليها في الأتوبيس، نزل في المحطة الأخيرة وهي معه، نسيت أن أقول لكم أن أبي كان جميل المحيا، طويلاً عريضاً، شعره بني غامق وعيونه واسعة بنية، ذا شارب كثّ، نسخة مختلفة من رشدي أباظة..

ولم يتزوجها أبي إلا ستة أشهر، وكانت هذه أغلب زيجاته الأربع، ما بين ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر، وكل زواج مغامرة وحكاية مثيرة، ولم ينجب منهن أبداً.

«جميلة» كانت هاربة من عائلتها، تمرّدت على رفضهم لشاب تحبه، زاغ منها في زحام القاهرة، وقابلها أبي في أتوبيس متجه من شبرا إلى القلعة، وحين طلّقها، عثر عليها أخوها الكبير الذي داخ خلفها السبع دوخات، في حجرة بروض الفرج، فقتلها وألقى بجثتها في النهر، وكتبت الجرائد عن الجريمة وأفاضت فيها، واحتفظت لي خالتي «مَنْبِية» بنسخة من جريدة «الأخبار»، وقالت لي بعد سنوات:

– خذ شوف ماذا يفعل أبوك؟

تدخلت أمي بصرامة، وخطفت الجريدة من يدي وقالت:

– أبوك هو تاج رأسك، إياك أن تسيء إليه ولو بلفظ.

لم أقابل من زوجاتي أبي وجهاً لوجه إلا زوجته الخامسة «عين»، رأيتها في شقتنا وهي تخدمنا، تغسل وتكنس وتمسح، فقد كانت زوجة مساعد أبي ذي الاسم السينمائي «الصُغَيَّر»، لا أتذكر شيئاً من ملامحه وسماته إلا أنه كان يعرج

قليلاً..

«عين» من قرية تبعد كيلومترات عن «الباجور»، يطلق عليها العامة «كفر روسيا»، نساؤها قويات على رجالهن، قادرات يمشين على هواهن، ويعشن بدماغهن -هكذا يقولون- وكانت أمي تضرب مثلاً بحكاية لا تحدث فعلاً إلا في روسيا أو في بلاد الإنجليز، وليس في قرية مصرية، وقائع تشبه تلك التي جرت في رواية د. هـ. لورانس الشهيرة «عشيق الليدي تشاترلي»، وهي أن سائقاً على طريق القرية تعطلت سيارته، فركن على جانب، بجوار دور قديمة تتناثر على الضفة الغربية لترعة الباجورية، كانت تقف على باب إحداها امرأة بيضاء ثلاثينية ملفوفة القوام شعرها متمرد على منديل شعبي ملقى بإهمال عليه، ومعها بنت صغيرة، كلمة من هنا وكلمة من هناك، نادت المرأة على زوجها من داخل الدار، وأمرته أن يستضيف السائق على كوب شاي، احلوّ الحديث والأخذ والرد، دخل الليل، نظرت المرأة إلى زوجها، فأقسم على الضيف أن يبيت ليلته:

- النهار له عينان، وفي الصباح تلاقي «ميكانيكي».

وكلما مرّ السائق على الطريق يركن وينزل بالساعات هناك، ولم يأتِ أبداً ويداه فارغتان، وكان الزوج يعلم بالأمر، ولم ينبس ببنت شفة، حتى جاءت زوجة السائق بنفسها، وعملت فضيحة أمام باب الدار.. لم يتدخل فيها أحد من القرية.

كان من الصعب أن أصدّق هذه الحكاية..

ولم تصدّق أمي أن أبي تزوج من «عين»، بعد أن أجبرت « الصُغَيَّر» على تطليقها، وتركت له البنت ذات السنوات السبع، وكانت تحدّث نفسها:

- ليس معقولاً.. لا يمكن.. هي أكبر منه في السن.

وعادت أمي إلى وضع رأسها تحت المياه الباردة..

كانت «عين» أشطر من زوجات أبي السابقات، فهي تعرف حكاياتهن،

وأن أبي لا يتزوج إلا شهوراً، ويطير كعصفور ضاق بالحبس، فأعدّت عُدّتها ونصبت فخاخها؛ حتى لا يهرب الصيد من المصيدة، قد لا نعرف التفاصيل، لكن المؤكد أنه وقّع لها على إيصالات أمانة أو شيكات بمبلغ كبير، من باب الاحتياط والواجب، ثم أنجبت منه ولدين.

وقتها غاب أبي أياماً، كنت قد تجاوزت الثانية عشرة، ولاحت أيام الضنك في الأفق، وقالت أمي:

– لن نغادر هذه المرة.

عشنا صعوداً وهبوطاً، مثل ركاب سفينة غرقت في البحر، معلقين على ألواح خشبية تهتز مع كل موجة، يمر بِنَا أبي ضيفاً، ينتشلنا أحياناً في لحظة صفاء، ويدعنا لأقدارنا تفعل ما تشاء في لحظات عكننة.

ولم أستسلم لإهماله، وجلست إليه متسائلاً:

– لا أفهم يا أبي لماذا تعاملنا هكذا؟

ورحتُ أصفُ له مشاعر المهددين بالغرق، بينما الشط لا يبعد سوى بضعة أمتار، لكن الواقف عليه لا يمد لنا طوق النجاة.. وانسابت دموعي نهراً فائضاً يجرف أي سدود تحاول صده، لم تفلح طبطبته ولا احتضانه لي، ولا كلماته الطيبة التي تلحّفت باعتذارات تبدو صادقة.

ربما ساعتان ربما ثلاثة.. قبل أن أتوقف.

بعدها بأيام بات أبي ليلته الأولى معنا بعد سنتين من زواجه..

ومضت أيام الضنك بلا عودة، ونجونا من الغرق..

ومددتُ حبل الودّ مع زوجة أبي، لِمَ لا أذهب إليه كلما احتجنا شيئاً؟، لماذا ننتظر يوماً أو يومين إلى أن يأتي؟

قبلت زوجة أبي بزيارتي، بل وشجعتها، كانت تخطط لشيء لم يخطر على

بالي، حتى أخذت الثانوية العامة..

قالت لي:

– أزوجك بنتي «بديعة»، ولا تغرم مليماً أحمر، الشبكة والشقة والعفش وكل حاجة!

صرخت أمي:

– الحية عايزة تلدغ الولد مثلما لدغت أباه.. أموت فيها.

قلت لها:

– الحية خسرت الرهان.. لم يعد يحتمل تسلطها، لكن طلاقه منها مستحيل.

فاتت سنة ربما سنتان، وفوجئت بدق شديد متسارع على باب شقتنا، استر يا رب، فتحت الباب، فإذ بزوجة أبي تدخل مندفعة:

– أين هو؟

كان أبي مستلقياً وقت الظهيرة، انتبه على صراخها. قالت له وهي تلطم خديها:

– تتجوز عليَّ أنا.

تجمّدت من الصدمة، ثم أَفقتُ قائلاً:

– ربما يكون خبراً كاذباً.

ولم يكن كذلك، فقد تزوج أبي فعلاً من امرأة تمتّ بصلة قرابة لأمه مات زوجها في حرب الاستنزاف، وتعيش في قرية أبشيش، وراح يزور عائلتها بعد شهور طويلة بالمصادفة، ولم يغادر إلا وهي على ذمته.

ولم أستطع منع نفسي من الضحك.

obeikan.com

(٣)

خالتي «مَنْبِية»

سألت جدتي في لحظة شقاوة صبيانية:

– من أين جئتم لخالتي باسم «مَنْبِية»؟

هشّت جدتي ناحيتي بعصا لا تفارق يدها في رواحها ومجيئها:

– والنبي يا ابني ما أعرف.

احترت دوماً في تفسير اسم خالتي مَنْبِية، حتى التحقت بالمدرسة الإعدادية وتعلمت البحث في معاجم اللغة عن معاني الكلمات الغامضة، و«مَنْبية» من الفعل أنبى، فهو مُنبٍ، والمفعول منْبيّ، وأَنْبيت الأذى أي دفعته بعيداً، يا الله كيف لفلاحين لم يفتحوا كتاباً أن يختاروا لابنتهم اسماً فصيحاً صعباً!

خالتي مَنْبِية على عكس اسمها، بشوش، متفائلة، خفيفة الروح والحركة، ملامح مصرية قح، اللون الخمري على تقاطيع في غاية البساطة، العيون واسعة مكحلة دائماً، والخدود موردة والطرحة السوداء على رأسها، وأنف فرعوني له كبرياء، تمشى كملكة متوجة بين أروقة قريتنا، وبالفعل كانت «حسناء الحي» إذا جاز هذا الوصف على «ريفية» من قرية كفر مناوهلة، لا يمكن أن تكتمل سعادة عروس في فرح إذا لم تحضره «مَنْبِية»، صوتها الرخيم مبهج ورقصها الفلاحي بديع، وتحفظ من الغناء الشعبي الكثير.. وكنت أتسلل دوماً صبياً صغيراً بين النسوة أجلس على الأرض أتابعها بشغف.

أحبت خالتي وهي في سن المراهقة «عبد الحارث»؛ شاباً عايقاً من عائلة كبيرة، رفض أهله أن ينصاعوا له، وأجبروه علي الزواج من فتاة من عائلة تملك «طيناً ورؤوس ماشية» من قرية مناوهلة الملاصقة، وهدده أبوه بالحرمان من الإرث، أرضاً ونصيباً في دار كبير مبنية على قراطين ونصف قيراط، بجوار دار العمدة وشيخ الخفر، وبعد سنتين زوجت عائلة أمي خالتي بالإكراه من شاب عنده بضعة قراريط يزرعها في «الوسية»، ويسكن في نفس حارتها..

لكن قصة الحب بين خالتي و«عَبَد الحارث» رفضت الخضوع للواقع والدفن حية في برج الذكريات البعيدة الشجية، وظلت تتنفس وتنبش وتتقد تحت الرماد، خالتي تفننت في «تنغيص» حياة زوجها، الذي لم يستطع أن يتفهم مشاعرها، وكانت في التاسعة عشر من عمرها، وهو يكبرها بسبع سنوات، فعاملها بجليطة وغيرة مجنونة، وضربها أكثر من مرة، وحبسها ذات مرة في الدار أسبوعاً، وأجلس أمه على بابها حارساً، وبعدها انتهزت فرصة مؤاتية وجرت على بيت العائلة غاضبة، لتعيش مع أمها بعد وفاة أبيها، ولم يكن مرّ على زواجها سوى ستة أشهر، وفشلت كل محاولات إصلاح ذات البين، من شيخ الجامع على ناصية الشارع، وشيخ الخفر، وخالها «محمد عبيد»، وكان ثرياً وله شنّة ورنّة في الناحية، وظلّت عند أمها لأكثر من عام، وفي النهاية طُلّقت منه في تحدٍّ بالغ للعادات الحاكمة والتقاليد التي قد لا تراعي قيمة الإنسان بقدر ما تراعي «شكله الاجتماعي».

وبمجرد انتهاء عدّتها تقدم لها «عبد الحارث» واتخذها زوجة ثانية، وقبلت بسعادة غامرة.. كان «عبد الحارث» قد انتقل للعمل في مدينة شبين الكوم القريبة، وسكن مع زوجته الأولي التي أنجبت له ولداً وبنتين في بيت كبير منفصل من بابه، أما خالتي فقد ظلت في دار أبيها مع أمها ضعيفة البصر، بعد زواج أخواتها الثلاث وانتقالهم إلى مصر المحروسة، يتردد عليها زوجها مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، وكان قد جدد لها فرش القاعة، بصندوق ملابس عمولة وكنبة إسطنبولي وتنجيد حرير في حرير.

عشت مع خالتي وجدتي في كفر مناوهلة عامين..

كانت خالتي تكبر أمي بخمس سنوات، ولأسباب سحرية خافية، كانت علاقتها بأمي وثيقة متشابكة منذ كانتا طفلتين تلعبان في الجرن القريب عن بقية أخواتهما، الولدين والبنتين..

ولم تكن خالتي مَنْبِية تنجب، بالرغم من المحاولات السرية التي بذلتها بعيداً عن عّم «عبد الحارث»، فهو لم يسع إلى الإنجاب منها، مكتفياً بالولد والبنتين من زوجته الأولى.. فصبّت عليَّ كل حنان أمومتها الدفينة، كما لو كنتُ ابنها البكر، تستجيب لرغباتى حتى لو كان عسلاً ولبناً فى أيام القحط.

وحين طلب أبي أن أعود إلى بيتنا في شبرا، وكفي دلعاً في الأرياف بعيداً عنه وعن أمي وإخوتي، بكت وراحت تترجّاه دون جدوى..

خالتي مَنْبِية هي التي اشترت أول مكتب أذاكر عليه بدلاً من «الطبلية»، وهي التي أدخلت الكهرباء إلى شقتنا بعد أن نمت على المكتب، وكادت لمبة الجاز أن تحرقني والمكان..

لم تدخل بيتنا في أي مرة دون «زوادة» فيها ما لذ وطاب من خير الأرياف: بط وإوز وأرز معمر وسمن بلدي وعيش مرحرح وجبنة قديمة معتقة.

لكن كانت تتمنى دوماً أن تنجب من «عبد الحارث»، حتى انتقل «عبد الحارث» من شبين إلى مقر الشركة بالقاهرة، وسكن مع زوجته الأولى في شارع القضاعي بالقرب من «مطار المنوفية» الذي يعمل فيه..

وقال لخالتي:

– العمر يمضي والسفر من مصر إلى كفر مناوهلة مرتين ثلاثة في الأسبوع صعب، تعالي «عيشي» معنا في شبرا.

سألته:

– وهل أم العيال تقبل؟

أجاب:

– سوف أقنعها..

وفعلاً قبلت أم العيال، فقد بدأت صحتها تعتلّ، ولم تعد قادرة على خدمة أولادها «المدلعين» جداً، وقالت لهم:

– خادمة في البيت..

لم يمضِ على وجود مَنْبِية في شقة القضاعي ثلاث سنوات، إلا وحملت وكانت قاربت على الحادية والأربعين أو أكثر قليلاً، وأنجبت أول أولادها «صبري» صبياً في جمال البدر، والاسم له دلالة من حياتها، وبعد ثلاث أعوام أنجبت سوسن.. فكان رأسها برأس الزوجة الأولى..

في تلك الفترة لم يكن «طلعت» أكبر أبناء «عبد الحارث» قد بلغ الثلاثين، فلم يعد وحيد أبويه، وطلبه الجيش للتجنيد..

كان مهندساً بالمصانع الحربية، شاباً عصرياً أنيقاً يرتدي على أحدث موضة، وعاش طفولته منعماً، يهوى قراءة مجلة الكواكب الفنية ويحتفظ بأعدادها من منتصف الخمسينيات في مجلدات، كنت أستعيرها منه في نهاية الستينيات، فيظل يلاحقني حتى أردّها.

ولم يرد «طلعت» أن يجنّد بالجيش، وكان المجندون وقتها يقضون سنوات قبل أن تردّ مصر على هزيمتها في يونيو ١٩٦٧، وتقهر «إسرائيل» في أكتوبر ١٩٧٣، فكر في حل أناني جداً، إذ أقنع أمه بالطلاق من أبيه، ليكون هو عائلها الوحيد، فيحصل على شهادة إعفاء مؤقت سنتين ثلاثة، تتحول إلى إعفاء نهائي بعد بلوغه الثلاثين، ثم يعيدها أبوه إلى عصمته.

وافقت الأم، لكنها لم تعد مرة ثانية إلى عصمة عّم «عبد الحارث»، وعاشت خالتي مَنْبِية في شقة القضاعي «سيدة بيتها»، ومعها الزوجة الأولى المطلقة في

غرفة مستقلة، ضيفة عزيزة مكرمة، لكن لا صوت لها ولا رأي.. وحين اقترب عّم «عبد الحارث» من سنّ المعاش، انتقل ليعيش في قريته، في بيت العائلة الكبير المبني على قيراطين ونصف القيراط، لكن مطلقته رفضت وعادت إلى بيت أهلها في مناوهلة..

سألت عّم «عبد الحارث»:

– لماذا لم ترجع أم «طلعت» إلى عصمتك؟

ردّ ضاحكاً:

– ما صدّقت خلصت منها، كفّرتني وكفّرت خالتك.. وكان من المستحيل أن أطلقها لولا طلبها.

عاشت خالتي مع «عبد الحارث» سنوات في كفر مناوهلة وولديها، ودخل «صبري» سنّ المراهقة، حين مرض «عبد الحارث»، واحتجز في مستشفى شبين العام، وحين زرته وجدت عينيْ خالتي حمراوين يطقّ منهما الدم، وارتمت في أحضاني باكية:

– الدكاترة قالوا خلاص.

ولم أرها مبتسمة حتى لحقت به بعد عامين.

obeikan.com

(٤)

الحاجة «أم رجب»

الحاجة «أم رجب» هي جدتي، بيضاء وجهها مثل اللبن الحليب، هيفاء جميلة ولا فاتنات السينما، عينان خضراوان وشعر طويل ناعم أسود من الليل، قبل أن يسفر الفجر من بين براثنه ويشقشق على الكون، لكنها كانت فلاحة مصرية صارمة، لا تقبل أنصاف الحلول ولا «الدلع المرِئ»، تقف بثبات مثل شجرة سنط لها جذور في الأرض، وتمشى مثل جندي ذاهب إلى جبهة القتال، وعيت عليها حين ذهبت للعيش معها في «إبخاص»، قرية صغيرة بالمنوفية، بين الباجور وسبك الضحاك، وكنت في الصف الثاني الابتدائي، وعلى الفور أرسلتني إلى كتّاب الشيخ متولي كل مساء، لأحفظ جزأي عّم وتبارك.. وما أدراك من هو الشيخ متولي وخرزانته اللولبية من البوص اللين الذي ينمو على ضفتي الرياح، تسقط على أجسادنا النحيلة كشهاب حارق ساقط من السماء، فلا تتركنا علاماتها الحمراء وخطوطها الزرقاء إلا بعد أيام قد تمتد لأسبوع.

وذات ليلة ليس فيها بهرجة هذه الأيام من أضواء وزينات، فالأرياف غارقة في عتمة الليل دوماً، والكهرباء ترف لا تعرفه ولم تسمع به أصلاً، والنَّاس تنام غالباً بعد صلاة العشاء، نادت جدتي عليَّ:

– تعالى يا ابن «رجب».. غداً أول رمضان سنصوم جميعاً، ولو عايز تروح الجنة وربنا يرضى عنك لازم تصوم.

أجبتُ مستسلماً:

– حاضر يا ستي.

ولم أسألها قط، لماذا كانت تناديني بـ»ابن رجب» دون اسمي، وكيف منحها أهل قريتنا لقب «الحاجة» ولم يسبق لها أن طافت حول الكعبة أو صلّت في الروضة الشريفة.

و»رجب» هو الاسم الثاني من اسم أبي المُركّب (السيد رجب)، وقد اختاره جدي تيمّناً بالشيخ «رجب»، فإذا كان «رجب» شيخاً مباركاً، فأبي هو «السيد رجب»، ابن وحيد على بنات تجاوز عددهن الدستة.

لكن لاحظت دائماً أن العلاقة بين أبي وجدتي فيها حميمية ناقصة، دفء غير مكتمل، لم أره أبدا يقبل يدها أو ينحني تحت أقدامها كعادة أهل الريف المرتبطين وثيقاً بعائلاتهم في ذلك الزمان.. سمعت حكايات كثيرة، فأبي تزوّج من أمي على غير هواها، وكانت جدتي قد جهزت له عروساً وكلّمت أهلها..

كما صرفت كل مليم ورثته عن جدي وأسرتها تعويضات عن تصرفات له أضرّت مادياً بالآخرين، مثل سيارة استعارها ودخل بها في شجرة، خسارة في تجارة جرب حظه فيها، وأشياء صغيرة من هذا النوع، وكانت تعض بأسنانها ونواجزها على هذا الميراث من جدي لستر بنتيها «شفيقة» و»فتحية» اليتيمتين، لكن لم تنقطع علاقتها به، كانت هي تزورنا قادمة من البلد في «سفينة ركاب نيلية»، كانت تبحر صباحاً في رحلة يومية من قرية «القرنين» شرق قريتنا بمسافة كيلومترين، وترسو على ساحل روض الفرج في المساء.. وألغيت في أوائل الستينيات وحلّ محلها أتوبيس ما بين شبين الكوم والقاهرة، ماراً بالقرى الداخلية بعيداً عن الطريق المباشر.

كان جدي قد رحل عن دنيانا في منتصف الأربعينيات، وترك جدتي في عزّ شبابها، لم تكن قد بلغت الثلاثين، فحاجت على البنتين، ولم تقدر على أبي الذي كان جامحاً متنقلاً، وعاشت لهما حتى زوّجت «شفيقة» من عائلة أبو الريش، شاباً يعمل في المنصورة ورحلت معه، وزوجت «فتحية» من موظف في وزارة

المالية عاشت معه بالجيزة.

واستقرّت هي في دارنا بإبخاص، ومعها أختها الصغرى أمينة «قمر أربعتاشر»، بعد أن مات زوجها أيضاً، وتركها صبية، وكانت هي الزوجة الثانية في آخر أيامه.

بالرغم من صلابة جدتي وصرامتها وقسوتها الظاهرة، إلا أن «رقتها المخفية» كانت تغلبها حين يقع ابنها «رجب» في مطبّ سيئ، وما أكثرها؛ بسبب ولعه بالنساء، فتفعل المستحيل لتخرجه منها بكل السبل، وكانت مسموعة الكلمة في قريتنا والقرى المجاورة، فهي صاحبة حكمة وبصيرة «وحقانية»، ولا تماطل ولا تكذب لو كان على رقبتها. وكم من مرات حضرت معها جلسات كانت هي الحكم بين «رجال» بـ«شنبات» يقف عليها الصقر، فتعلمت منها الصدق وكراهية الظلم.

كانت تعاملني بجدية، خافت عليّ من «التدليل» الذي حَمَلَتْهُ سبب استخفاف أبي بأشياء مهمة في الحياة؛ إذ دَلَعَ جدي أبي بإفراط مبالغ به، يعوّض به حرمانه من «خلفة» الولد لأكثر من خمسة وثلاثين سنة زواجا وتسع زوجات.. فحرصت جدتي ألا أنال منها أي «فتفوتة» دلع، وحين أجبرتني على الصيام ولم أتجاوز الثامنة، لم تتركني وحدي لحظة، وأجبرتني أن اجلس معها، سواء ذهبت إلى «الزربية» تحلب، أو قعدت أمام الفرن تخبز، أو راحت إلى غيط عّم «فتحي» تطلب منه «عودين ملوخية»..

وحين تهاويت بعد العصر من شدة الجوع، أخذتني في حجرها، تطبطب على ظهري قائلة:

– لما تصوم ربنا يحبك ويعلي مراتبك ويوقف لك أولاد الحلال في سكتك، ووشّك يوم القيامة يبقى أبيض وجميل..

ومن يومها صُمْتُ على كلامها طول عمري.

وذات مرة طلبت من أمي أن أسافر كعادتي كل صيف إلى قريتها «كفر مناوهلة» بعد امتحان أخر العام، لكن أمي كانت «واخدة» على خاطرها من خالتي مَنْبِية، فرفضت، وضاعت كل «محايلاتي» في الهواء، فاستيقظت صباحاً، لميت هدومي في شنطتي، وطرت إلى «مطار المنوفية» أمام الجامع الخازندار بشبرا، ومنه إلى البلد.

قعدت الثلاثة أشهر مثل كل عام مَرَحاً ولعباً وسباحةً في بحر شبين، وهزاراً وسهراً على رأس غيط خالي خطاب، وأمامنا «مَنْقَد» يتوهج فحمه وحطبه، وبراد شاي وأكوام من «كيزان» الذرة مجهزة للشواء.

وحين عدت منتشياً، وجدت جدتي في شقتنا..

قالت لي أمي مستهجنة وتكاد تنقضّ عليّ:

– ما فعلته لن أسامحك فيه، تسافر من غير ما تقول لي، ودورت عليك يومين، وعرفت أنك في البلد.

أما جدتي، فما كدت أقترب منها فاتحاً يدي، إلا وهوت بكفها على صدري، وأمسكت بي وقرصتني «قرصة دم» من بطن فخذي الأيمن، يبدو أنها دامت دهراً، كما لو كانت نوعاً من التعذيب في القرون الوسطي، التعذيب المخيف الذي قرأت عنه في روايات «رافائيل ساباتيني» التاريخية، وهو كاتب إنجليزي من أصل إيطالي..

«قرصة واحدة ظللت أبكي من آلامها ساعتين على الأقل، بالرغم من الماء البارد الذي غسلتها به، وصاحبتني علامتها شهوراً طوالاً، وإذا لمست يدي موضعها يحل الألم بها.

بعد سنتين أو ثلاث، سافرت إلى جدتي، وقَعَدت عندها أسبوعين..

وفي لحظة صفاء سألتها عن تلك القرصة الرهيبة..

أجابت بسلاسة:

– ستظل طول عمرك تفتكرها ولن تعمل خطأ مماثلاً مرة ثانية.

سألتها جاداً:

– لماذا ينادونكِ بـ«الحاجة أم رجب»؟

أجابت بنفس البساطة:

– رأيت النبي في منام وأنا بنت صغيرة، يمكن قبل ما أتزوج جدك بسنتين ثلاثة.. ومن يومها أخذت لقب الحاجة، ولما خلفت أباك قالوا «الحاجة أم رجب».

مدّت يدها وأمسكت رقبتي، وضمّتها إليها في حنوّ:

– يعني قبل ما تشرف حضرتك بأربعين سنة.

سألتها ضاحكاً:

– هو صحيح لماذا لم تتزوجي يا حاجة بعد موت جدي؟

أمسكت بطن فخذي الأيمن قائلة:

– شكلك ما «حرمتش».

ثم قامت للصلاة.

obeikan.com

obeikan.com

(٥)
حكاية الأستاذ سمير

كنت في الصف الرابع الابتدائي، حين أعاد مدرس الحساب كراستي بعد تصحيحها، فوجدت دائرة كبيرة بالقلم الأحمر، عشرة على عشرة، وجنبها كلمة «غشاش» أكبر من الدائرة نفسها.

كنت تلميذاً ريفياً محولاً من مدرسة قريتي، بعد بدء الدراسة بثلاثة أسابيع ربما أربعة، كنت جديداً وغريباً وخجولاً، لم أستطع صدّ الصفة اللعينة عن نفسي، وعشت مع الدرجات النهائية وغشاش ما لا يقل عن شهر، وناداني المدرس ذات مرة وصرخ فيّ أمام كل الفصل:

– يا دمك البارد يا أخي، يعني لازم تغش من «دسوقي» جنبك، عيب واعتمد على نفسك.

كانت درجاتي دائماً هي نفس درجات التلميذ الجالس بجانبي على الدكة.

قلت منكسراً:

– أنا لا أغش.

شخط قائلاً:

– روح اترزع يا غشاش.

بعد أيام دخل الفصل متربصاً:

– فيه امتحان..

اتجه ناحيتي غاضباً:

– تعالى هنا، أقعد على الدكة المكسورة في نهاية الفصل وحدك.

كتب مسائل الحساب على السبورة، وانزويتُ وحيداً «أحلّها»، ثم رفعت يدي بعد أقل من نصف الوقت المسموح به:

– خَلَّصْت.

ردّ وهو قادم ناحيتي:

– طبعاً لم تحلّ شيئاً وخلّصت بسرعة!

أخذ ورقة إجابتي متأففاً.. وتوالت كلمة «خلصت» من الفصل تباعاً.

دخل في اليوم التالي ونادى على اسمي دون تكشيرة ولا غضب وقال:

– أنا ظلمت زميلكم، وهو شاطر فعلاً، وجاب أزيد من «دسوقي» بثلاث درجات.

«دسوقي» لم يكن جاري فقط على نفس الدكة، وإنما أيضاً في الشارع الذي أسكن فيه، خلف كنيسة سانت تريزا، وقسم الساحل، ويتوسط المسافة بين شارع شبرا وشارع الترعة البولاقية.

ولم أُحبّ هذا المدرس قط، ولا أذكر اسمه الآن..

لكن أحببت المدرس «سمير»، وما زلت مديناً له بدين يستحيل ردّه..

انتقلنا إلى مدرسة الإمام محمد عبده الابتدائية، خلف جراج الأتوبيسات بالترعة البولاقية، بعد أن آلت مدرسة شيبان للسقوط، كان «سمير» شاباً في حدود الثلاثين من عمره، مخلصاً متفانياً، ومحبوباً منا جميعاً، بالرغم من استخدامه المفرط للعصى في العقاب، وبسنّ المسطرة على ظهر اليد، ويتابعنا

تلميذاً تلميذاً بدقة، وينادي بلقب «الحساباتي»:

– قم يا حساباتي حل المسألة «دي» على السبورة..

– تعالى يا حساباتي قفْ على الفصل في غيابي..

– روح يا حساباتي هات طباشير من عم حسين في المخزن..

كان نظام التدريس أيامنا يخصص أول عشر دقائق من حصة الحساب للتدريبات الشفهية، أي يقرأ المدرس المسألة علينا، ولا يكتبها على السبورة ونحلها شفاهة، كنوع من التدريب العقلي على التفكير العلمي المنظم.. وكنت من المجيدين فيها.

وفجأة اكتشف الأستاذ «سمير» غيابي عن المدرسة لثلاثة أيام متتالية، ثم طالت إلى ما يقرب من سبعة وعشرين يوماً.

كانت أمي قد عانت الأمرّين؛ إذ مضى أبي على درب جدي، وتزوج للمرة الرابعة، وحين يفعلها يختفي كعادته من حياتنا في الأسابيع الأولى، فتمسك بنا أيام صعبة، كانت تتفنن أمي في عبورها بعبقرية مدهشة بعيداً عن عائلته المقتدرة التي لا تعجبها تصرفاته، فتعاقبنا نحن عليها بالابتعاد عنا، فكنا نهجر القاهرة، ونعود إلى بلدة أمي نعيش مع جدتي وخالتي، وهناك أمضيت السنوات الثلاث الأولى.

وفجأة ضاقت السبل بأمي في الزيجة الرابعة، وقررت أنها لن تعود بنا إلى بلدتها، ونادتني فجلست بجوارها، فقالت لي وهي تبكي بحرقة:

– أنت الكبير وفاهم ما أقول، لم يعد بمقدوري التحمل، فهل يمكن أن تأخذ إخوتك، وتذهب لتعيش مع أبيك وزوجته فترة، وهي لن تتحملكم، وسوف تعودون بعد أيام نكون اتفقنا معه على انتظام مصروفات البيت؟

كنا أربعة صبيان، وفعلاً ذهبت وإخوتي، وعشنا هناك ما يقرب من ثلاثين يوماً فقط، كانت شديدة الوطأة على أنفسنا، كنت مجتهداً في الدراسة،

ولم يحدث أن ذهبت إلى المدرسة دون عمل الواجب، لكن مع زوجة أبي كان الأمر صعباً للغاية، من تصرفات ترتكبها زوجات الأب دوماً مع أولاد زوجها، ولها تراث شائع مُسجل في الثقافة الشعبية، فلم أقدر على مواجهة الأستاذ سمير مهملاً في واجباتي، فتغيبت عن المدرسة، أخرج من البيت في الصباح وأدخل أي سينما درجة ثالثة في شبرا، وكانت شبرا بها سبع سينمات، غير ست أخرى صيفية، كل سينما تعرض ثلاثة أفلام عرضاً مستمراً، من العاشرة صباحاً إلى الخامسة مساء، وتتبدل الأفلام كل يوم اثنين.

وسأل الأستاذ «سمير» تلاميذ الفصل عني، حتى عثر على جاري «دسوقي»، فاصطحبه وجاء به إلى أمي.. وسألها عني، فقصّت عليه حكاية ذهابي إلى زوجة أبي لأعيش هناك، فقال لها:

– هو متغيب عن المدرسة منذ شهر، ولازم يرجع خسارة أن يضيع، ابنك ممكن يبقى حاجة كويسة.

وراح يقنعها لأكثر من ساعة أن تتنازل عن موقفها..

بعدها بيوم دخل أبي مقطب الجبين، وتصوّرت أنه عرف بأمر هروبي من المدرسة، ولم يكن ذلك صحيحاً، وقال لي:

– لمّوا هدومكم وتعالي انت وإخوتك سوف تعودون إلى أمك.

في سرعة البرق نزلنا، وعرفت أن أمي عملت «قعدة رجالة» لأبي، وتعهّد أمامهم بالحفاظ على دفع مصروفات البيت شهرياً، علاوة على شراء اللحم مرتين في الأسبوع.

وبمجرد أن دخلت على أمي، استقبلتني «تلطيشاً» وضرباً، وهي تصرخ فيّ:

– حرام عليك أنا شربت الذل عشانكم، وبعدين تهرب من المدرسة.

فشرحت لها ما كانت تفعله زوجة أبي.. ولم تقتنع بأسبابي.

وصاحبتني أمي إلى المدرسة، وقابلت الأستاذ «سمير»، واتفقت معه على «نوتة» صغيرة يوقّع فيها كل يوم أذهب فيه إلى المدرسة، حتى تتأكد من عدم زوغاني.

وفعلاً ذهبت ووقّع لي الأستاذ «سمير» على أول ورقة في النوتة، وأخذتها إلى أمي، فمزقت الورقة.

ذهلت وسألتها:

– لماذا يا ست «عزيزة»؟!

فقالت:

– حتى لا تضحك عليّ، مع الأيام سوف يزداد عدد الأوراق الموقع عليها الأستاذ سمير في النوتة، ولن أعرف التوقيع الجديد من القديم، أما «كده» فكل يوم ورقة لوحدها. وانتظمت ثلاثة أسابيع، حتى أعفتني من النوتة، وقالت وكلها رجاء:

– أثق بك فلا تخذلني.

ولم أخذلها، ولم أخن ثقة الأستاذ سمير ولا توقعاته، وعشت مراحل تعليمي كله بعد انتقالي من المدرسة الابتدائية وهو معي، أشعر بوجوده ونظراته ولومه وتشجيعه وتحذيره وأسمع كلماته ونصائحه تتردد في أذني كلما تسلل الملل أو التمرد إلى نفسي، أو وقعت في صحبة سيئة مُحرضة على الانحراف.

وقد قابلت بعضاً منه في الأستاذ «بديع» مدرس الإنجليزي في الهاشمية الإعدادية، وفي الأستاذ «فتحي» مدرس العربي، وفي الأستاذ «عبد العزيز صقر» مدير مدرسة شبرا الثانوية التي كانت على وشك أن ينفرط عقدها، وينفلت عيار طلابها، وجاء بصرامته وجدّيته وخرزانته وصوته الجهوري الشامخ وجعلها تمشي كالساعة.. وغيرهم كثيرون.

وحين عملت بالصحافة ونشرت «روزاليوسف» أول تحقيقاتي، عدت إلى مدرسة «محمد عبده»، لأري الأستاذ «سمير» بعضاً من عمله الرائع، لم يكن هناك، فقد انتقل من المدرسة منذ سنوات، ولا يعرف أحد مكانه، وإن ظلّ في مكانه من نفسي وعقلي ووجداني.

obeikan.com

(٦)
جابر وسعدية

استيقظت ليلاً مفزوعاً على بكاء ونحيب حار بدا لي ما بين النوم واليقظة خارجاً من قلب مكلوم تكويه نيران قاسية، وجدت خالتي «سعدية» مكورة في ركن من الغرفة، تكاد «تموّت نفسها من العياط»، سعدية تصغر أمي بثلاثه أعوام ، كانت في الثلاثينات من عمرها، قوامها مفرود، ملامحها حلوة، شعرها الأسود منسدل دائماً على ظهرها قافزاً من خلف «طرحة» شيفون سوداء، كنت في أوائل المرحلة الإعدادية..

اقتربت أمي قائلة:

– قم اجلس مع عمك «جابر» وخالك «أحمد».

عمّ «جابر» زوج خالتي «سعدية»، صعيدي من الفيوم، قصير القامة نسبياً وعريض المنكبين، له عضلات واضحة، يتردد على نادٍ شعبي في باب الشعرية، يلعب فيه «كمال أجسام»، ويعمل في شركة الحديد والصلب بحلوان، وكنت أحبه كثيراً؛ لطيبة قلبه وحنانه.

وجدته دافناً رأسه بين ذراعيه وهو جالس في الصالة، وخالي «أحمد» يطبطب على ظهره مهدئاً، اقتربت منه، نظر إليّ بعينين حمراوين تهطل منهما دموع غزيرة صامتة.

لم أفهم ما حدث، سأل خالي:

– هو بيت المأذون بعيد من هنا؟

ردّت أمي:

– ربع ساعة.

– مأذون.. ماذا يحدث؟

قالت أمي:

– طلاق خالتك من عمك «جابر».

خرجت كلمة واحدة من فمي هادرة:

– مستحيل.. مستحيل.. مستحيل.

جريت على خالتي أسألها، لم تردّ..

سألت عّم «جابر»، أمسك طرف جلبابه ومسح بعض دموعه.. ولم يردّ.

هذا هو المستحيل بعينه، خالتي «سعدية» وعم «جابر» متزوجان عن قصة حب رائعة منذ ثلاثة عشر عاماً، حالة انسجام فريدة، عصفوران على أغصان الحياة يغردان.. عشت هذه القصة معهما منذ وعيت على الدنيا، كنا يسكنان في باب الشعرية، وكانت خالتي تصحبني معها، أمضي عندها أسبوعاً أو عشرة أيام كل بضعة أشهر، أتذكر لهفتها على عّم «جابر» حين يتأخر في العودة من العمل، اِنْتظارِها القَلِق واقفة خلف الشباك تراقب كل من يدخل إلى الشارع، كنت أتابعها جالساً على الأرض وفي يدي لعبة مشغول بها، وأعرف أن عمّ «جابر» هلَّ على باب الشارع، حين تتهلل أساريرها وتخطو بدلال من خلف الشباك، فأقفز وأخرج إليه، يستقبلني بالأحضان، ولم يقابلني قط دون شيء ما في يده... لعبة، بسكويت، شوكولاته، كيس فاكهة...

خالتي «سعدية» وعم «جابر» لا ينجبان.. وكنت ابنهما المدلل الذي لم يرزقا به، هكذا كانت تعاملنا خالاتي الثلاث، الولد الأول لأربع بنات متزوجات،

فخالتي «أم محمد» لم تنجب إلا بعد أربع سنوات من زواجها، أما خالتي «مَنْبِية» فلم تنجب إلا بعد ثلاثة وعشرين عاماً.

كانت خالتي «سعدية» تتفنن في إرضائي وإسعادي، من أول الهدايا إلى اللعب معي.. وكان الحال كذلك مع عّم «جابر»، فبمجرد عودته تبدأ مناوشاتنا حتى قبل أن يأكل، ونظل هكذا إلى أن أسقط في النوم بين ذراعيه تعباً.

أخذني الذهول ولم أتوقف عن السؤال:

– لماذا؟ لماذا؟

جاء المأذون، علا نحيب خالتي «سعدية» وزاد بكاء عمّ «جابر»، انتهت الإجراءات في «مَحزنة» لم أر لها مثيلاً، إلا في المآتم ومفارقة الأحبة بالموت الذي يخطف أرواحهم فجأة.

تكاثف سواد الليل على القلوب حتى تفحّمت واكتسبت لونه الحاد القاتم، لم يعد للوجود معنى أو غاية، كأن الأيام انتهت، ولم يبق إلا الدوران في فراغ لا نهائي، هل هي لعنة إغريقية من التي قرأت عنها أصابت خالتي «سعدية» وعم «جابر»؟

انتقلت خالتي إلى مسكننا، ومكثت معنا بضعة أشهر تحاول أن تلملم نفسها وتضمد جراحها المفتوحة، ثم سافرت عائدة إلى كفر مناوهلة، لتعيش مع أمها في المنوفية.

سألت خالتي:

– كيف تهون حياتكما إلى هذا الحد؟

قالت وهي تنتحب:

– لم أتحمل أن تشاركني فيه امرأة أخرى.. وجدت الفراق أرحم من مجرد الفكرة أو التصور أنه مع واحدة غيري، تنجب له ولداً، ومع وجود الولد

سوف يميل إليه بقوة الأبوة المحروم منها.. أخاف أن أصبح في حياته مجرد «جِميل» لعشرة طيبة.

كان أهل عمّ جابر منذ العام الأول لزواجه من خالتي وهم يلحّون ويضغطون عليه ويسألونه:

– يعني لا ولد ولا بنت في سنة؟

فيرد ضاحكاً:

– يا أمي كلها كام شهر وربنا يرزقنا، العجلة من الشيطان.

لكن الشيطان لم يركب العجلة قط، وتأخر رزق «الخلفة» كثيراً.

وكل مرة يزور عم «جابر» أهله في الفيوم، يُسمعونه من ثقل الكلام الذي هو أمْرُّ من السحر ما لا تقدر مشاعره على تحمله.

دارت خالتي «سعدية» ولفّت على أهل الدجل والشعوذة والعمل السري، مقتفية أثر حكايات تسمعها من النسوة عن معجزاتهم، رحلة طويلة بالسنوات لكن دون جدوى، ثم رضخت للعلم وقبلت الذهاب إلى طبيب متخصص، وأخذت عمّ جابر معها، وهما يقدمان رجلاً ويؤخران أخرى؛ خوفاً من المجهول، فيا ترى ماذا تحمل لهم الأقدار؟

كانت النتيجة مذهلة لهما، لا عيوب ولا مشكلات، كلاكما صاغ سليم مائة في المائة، ولا موانع على الإطلاق من الإنجاب، وروشتة فروشتة دون جدوى.

وقاوم عمّ «جابر» أهله عاماً وراء عام:

– يا سيدي حبها على قدر ما تقدر، لكن تزوج واحدة من عندنا تنجب لك الولد.

يردّ متحدياً:

– لن أتزوج عليها أبداً.

قاطعته أمه فترة، غاب عن زيارة البلد فترة، حتى تفتتت الحيل وتراجعت السبل، وضعفت إرادته، وخر صاغراً بعد أن هددته أمه:

– يا تتجوز وتنجب ولد يا ابني، يا إما تقطع علاقتك بي.

لا.. لا يستطيع أن يقطع علاقته بأمه ولا بأهله..

وفي ليلة، جلس إلى خالتي «سعدية»، قبّل يدها، وقال:

– «سعدية» لازم أتجوز، أمي غاضبة وفاتت سنين كثيرة رافض فيها كلامها، وانت عارفة كل حاجة.

ردّت بثبات كاذب:

– طلقني.. وتزوج كما تشاء وهذا حقك، وأنا متفهمة للوضع.

قال غاضباً:

– «سعدية» لا ضرورة للطلاق، أتجوز واحدة في البلد تقعد مع أمي في الدار، وأسافر لها كل خميس وجمعة.

ردّت:

– لن أتحمل، أنا عارفة نفسي، ممكن أتجنن، توكل على الله وتزوج، لكن طلقني أولاً.

أيام وأسابيع والحوار لا ينقطع والموقف لا يتغير، حتى جثمت الليلة السوداء على النفوس.

جفت دموع خالتي بعد سنتين تقريبا، لكنها كانت تتابع أخبار عمّ جابر من بعيد لبعيد، ووجدتها ذات مرة متهللة تكاد الفرحة تنطّ من عينيها، وكنتُ في إجازة صيف بالقرية، سألتها، قالت وهي ترفع يدها للسماء:

– «جابر» أنجب ولداً سمّاه «مصطفى».. إن شالله يتربي في عزه ويبارك فيه.

بعد سنة تزوجت خالتي، من أرمل يسكن في الجيزة، يكبرها بخمسة عشر عاماً تقريباً، وعنده مقهى كبير في مدخل الميدان..

لم تمر تسعة أشهر إلا وكانت خالتي أنجبت بنتاً أسمتها «رضا»، وبعد عامين أنجبت «وليد»..

ومات الزوج، وانغمست في تربية ابنها وابنتها تماماً كما لو أنها نسيت حياتها القديمة.

كنتُ أيامها طالباً في جامعة القاهرة أتردد عليها من آن لآخر.

وفي يوم وجدتها حزينة باكية مشتتة الذهن، سألتها:

– ما بك يا ست سعدية؟

قالت دون أن تلتفت إليَّ:

– «جابر» تعيش أنت.

وانخرطت «سعدية» في بكاء طويل مرير وهي تنوح:

– «زي» ما يكون فاتني امبارح.

openkan.com

(٧)
ماسح الأحذية الذي هزمني

أحياناً نصِف بعض المشاهد الدرامية في الحياة بأنها «شغل سينما»، ولا نتصور أن شغل السينما يمكن أن يحدث معنا ولنا، كنا فتياناً في المرحلة الإعدادية، بمدرسة الهاشمية في شارع القضاعي بشبرا، الشارع الذي أمام مدخل مطار المنوفية مباشرة، ومطار المنوفية هو موقف أتوبيسات شركة وسط الدلتا، القاهرة- طنطا، القاهرة- شبين الكوم، القاهرة- منوف... وكل القرى التي بينها، ولم يعد لهذه الشركة وجود، اختفت، وحلّ محلها الميكروباص بشياطينه وحوادثه وفوضويته على الطريق.

وجرت أيام العام واقترب من منتصفه، والإعدادية شهادة تفصل في حياتنا بين التعليم الثانوي العام، والتعليم الفني.. أو الخروج نهائياً من التعليم إلى صنعة لمن لا يقدر على دفع مصروفات المدارس الخاصة التي لا يلتحق بها إلا من يلحق به العار، ويفشل في الحصول على مجموع يؤهله لمدارس الحكومة.

كان «سليم» يجاورني على الدكة، لم نكن نسميها مقعداً وقتها، كان صبياً ممتلئاً، قصيراً نسبياً، خفيف الدم، متوسط المستوى التعليمي، لا يكف عن المناوشات..

كانت ملابسنا كلها متقاربة، بنطلون أسود، وقميص أبيض وبلوفر ملون، كانت مصر كلها متقاربة، ولم يطفح على سطحها هذه الفروق الجهنمية بين البشر، ولم تنتصب تلك الأسوار الحديدية الفاصلة بين الذين معهم الستر،

والذين معهم الملايين، لم نكن أيامها نسمع رقم المليون ولا نعرف قيمته على وجه الدقة، وحين كان يُذكر أمامنا أو نقرأ في الجرائد اسم «أرسطو أوناسيس»، كان يضربنا العجب ودهشة فلاح من قرية جبلية في جنوب الصعيد لم يغادرها مطلقاً، وفجأة وجد نفسه في الحي اللاتيني بباريس أو حي سوهو في لندن أو وسط صالات قمار لاس فيجاس.

وكان اسم «أوناسيس» بدأ يشق طريقه إلى صدر صفحات الجرائد اليومية الثلاث: الأهرام، والأخبار، والجمهورية، وكنت يومياً أدفع «تعريفة أي خمسة مليمات» لبائع الجرائد الكبير على ناصية شارع خمارويه، وأجلس بجواره أتصفحها ومعها المجلات الأسبوعية.

لا أظنكم تعرفون المليم، وبالمناسبة الجنيه فيه ألف مليم..

وكانت حكاية أوناسيس مع جاكلين كنيدي هي طبق النميمة العالمي على كوكب الأرض في ذلك الزمان البعيد؛ إذ دخل الرجل إلى حياتها، باعتباره صديق العائلة، بعد مقتل زوجها جون كنيدي في خريف ١٩٦٣، وبدأت الألسن تلوك سيرة أرملة الرئيس الأمريكي الراحل؛ لأنه ظل يتردد عليها سنوات، ويدعوها إلى رحلات بحرية على يخته الخاص كريستينا.

وكان أوناسيس «دونجوان» عصره، شائع العلاقات الغرامية، وكانت حكايته المنتهية مع مغنية الأوبرا اليونانية الرائعة ماريا كالاس لم تبرد بعد!

ساعتها عرفنا معني كلمة مليونير، وأن أوناسيس كون أول مليون دولار في حياته وهو في الخامسة والعشرين من عمره بعد أن رحل على ظهر سفينة بحاراً إلى قارة اللاتين، ثم تابعنا بالقراءة ملايين روتشيلد وركفلر وغيرهم، دون أن نرسم لها معنى محدداً في أذهاننا، فالقاهرة لم تعرف وقتها هذا النوع من الغنى الفاحش، ولا الفوارق الطبقية المخيفة، كانت الحياة بسيطة والفروق مقدوراً عليها.

وكنا تلاميذ مدرسة الهاشمية الإعدادية نبدو متشابهين إلى حد بعيد، بالرغم

من فروق في دخول آبائنا ووظائفهم.

كان «سليم» من أصدقاء الفصل المقربين، نتبادل الساندويتشات والحلوى، ونقترض من بَعضنَا أحياناً، أو بالأصح كنت أنا الذي أقترض منه، ولم يتأخر عني مطلقاً، فقد كان يحتاجني دوماً في اللغة الإنجليزية.

كان الأستاذ «وديع» مدرس اللغة الإنجليزية صارماً، لا تخلو يده من خيزرانة تتمايل في يده مثل غصن هفهاف على شجرة توت يغازلها الريح، وإذا سقطت على يد أحدنا، فلا تجوز عليه إلا الدعاء بالرحمة والصبر على بلواه الموجعة، فألمها حاد ممض كالصداع النصفي لا يرحل بسهولة.

لكنه كان أستاذاً عظيماً، عاشقاً لمهنته، مولعاً بتفوق تلاميذه، لم أشعر ولا مرة واحدة أنه يؤدي وظيفته مقابل أجر يتقاضاه، وإنما كان يعطينا بعضاً من نفسه، من عقله، يحاول أن يذرع فينا ما يعرفه، يسقينا إياه، وبقدر قسوته مع من يهمل، أو يبدو مشغولاً وذهنه خارج الحصة، أو لم يعمل «الواجب المنزلي»، كان في غاية الحنوّ والطيبة مع المجتهدين المواظبين، وكان يمنحهم جوائز مالية من جيبه الخاص، لم تقل أبداً عن خمسة قروش، وهو مبلغ يمكن أن نأكل به طبق كشري، ونقطع تذكرة سينما درجة ثالثة، وشبرا كان بها ثلاثة عشر دار سينما، منها ست دور صيفية، تحوّلت كلها إلى أبراج خراسانية أو أطلال تنعي زمناً مختلفاً!

وذات مرة نجح أحدنا في تحويل جملة صعبة جداً من كلام مباشر إلى كلام غير مباشر، فأخذت الجلالة بالأستاذ «وديع»، ومنح صاحبنا ربع جنيه كاملاً، أي يذهب إلى سينما مترو ويأكل ساندويتش من محل الأشول، ويشرب كابتشينو في الأمريكيين، ثم يأخذ جيلاتي في إكسلسيور بعد مشاهدة الفيلم.

وكان «سليم» يحتاجني دائماً في حصص الأستاذ «وديع»..

وجاء نصف العام بإجازته الممتعة التي كنا ننتظرها بفارغ الصبر، وكنا مجموعة من الأصدقاء نهوى الجوالة، ووضعنا خطة لاكتشاف القاهرة مشياً

على الأقدام، اليوم في السيدة زينب وجامع بن طولون والقلعة، وغداً في باب الشعرية والعتبة والأزبكية وشارع محمد علي بتاريخه الفني، ودار الكتب في باب الخلق، وبعد غد في إمبابة والمنيرة والكيت كات... وهكذا.

وقبل أن تنتهى الإجازة بيوم أو يومين، لا أذكر تحديداً، وكانت الأمطار قد هطلت على القاهرة قبلها بأيام، دون أن تغرق في «شبر ميه»، وكنا في وسط البلد، جنّتنا وكعبتنا التي نحجّ إليها أسبوعياً، نتأمل ذلك المعمار الرائع في مبانيها، ونرسم صورنا بالمقص عند فنانة السلويت الرائعة فتنة مؤمن بجوار سينما ميامي، أو نجلس في حديقة جروبي بفنانيها وكُتابها، أو نقف أمام تمثال مصطفى كامل في ميدانه الشهير نسأله: هل حقاً لو لم تكن مصرياً لوددت أن تكون مصرياً، لم يكن سؤالنا من باب السخرية ولا التريقة؛ لكن لأن حب الوطن مثل فصيلة الدم نولد به، فالمكسيكي لو لم يولد مكسيكياً لأراد أن يكون مكسيكيا، وكذلك الهندي والبرازيلي والتونسي والياباني والصيني والتايلندي و...

ولكن لنسأله سؤالاً كان يؤرقنا وما زال حتى يومنا هذا: ولماذا لم نصنع نهضة كالتي صنعها الأوروبيون؟، فمصطفى كامل قال قولته المشهورة رداً على حالة تغريب انتابت علية القوم من المصريين.

المهم رحنا وجئنا وتعبنا وجلسنا على مقهى نرتاح قليلاً، وسمعنا صوت ماسح أحذية من بعيد: تِلْمع تِلْمع.

صحت منادياً:

- تعالَ.

كنت أتحاور مع صديقي «صبري» في عبارة حادة قالها عباس العقاد كعادته، وأهملتُ قدمي لماسح الأحذية، فأخذها ووضعها على صندوقه، التفتّ إليه، فأصابتني الصاعقة، وشُلّت قدماي فلم أستطع تحريكهما، أما ماسح الأحذية فقد لهف صندوقه، ونهض جريا، واختفى في سرعة البرق..

كان هو «سليم» زميل الدكّة في المدرسة..

ومن يومها لم أره حتى الآن..

وما زال قلبي مشروخاً وموجوعاً به ومهزوماً له.

obeikan.com

obeikan.com

(٨)
خلطة شبرا

عشتُ في شبرا ثلاثين عاماً، تقريباً في كل مناطقها، حي بديع يتجلّى فيه الله والوطن في أعظم الصور، ويتحرك فيه البشر بتلقائية وسلاسة، الله واحد أياً كانت الطريقة التي نحبه بها، والوطن واحد أياً كانت فصيلة الدم التي تجري في عروقنا.. وكلنا أبناء الله، لا أحد يحتكر محبته والإيمان به، وكلنا أبناء الوطن لا أحد يملكه أكثر من الآخر!

«شبرا» حي بسيط، التسامح فيه جزء من أساس بيوته وطلاء عمائره وعادات أهله ولغة سكانه، كل فترة أعود إليه، فارداً أجنحة الشوق متجولاً، طوسون وبديع وشيكولاني وخلوصي، وكنسية سانت تريز، ومدرسة شبرا الثانوية، والجامع الهجين، والترعة البولاقية، ومدبولي الحلواني، ومكتبة دار المعارف، وعمارة «حسين رياض»، وكنيسة خمارويه، وجامع الخازندار، و«مطار» المنوفية، وسينما شبرا بالاس التي أتحسّر عليها بعد أن هدمها الجهل والعشوائية لتنتصب محلها عمارة ضخمة قبيحة تزيد من الزحام والتلوث.

وشبرا لمن لا يعرفها حي حديث نسبياً، ليس له عراقة القاهرة القديمة كالسيدة زينب والحسين ومصر القديمة وبولاق والموسكي، وكان إلى بداية القرن الماضي مجرد أرض زراعية تشقّه ترعة شهيرة، وهي التي رُدمت وسمّي واحد من أهم شوارعها باسم «الترعة البولاقية»، ولا أعرف سر وصفها بـ«البولاقية»؛ ربما لأنها استمدّت مياهها من نيل بولاق!

ثم تسلل العمران إليها قصوراً للشوام في البداية، ثم زحف تدريجياً حتى أخذت شكلها النهائي «حي شبرا»، لا هو بالأرستقراطي، ولا هو بالحي الشعبي القح في مجمله، هو حي بين بين، تجد فيه الأسر الموسرة، والأسر المحدودة الدخل، لكن ما يميزه هو رؤوس أبنائه، عقلياتهم، عقلية الطبقة الوسطى التي كانت، العقلية المتفتحة للتواصل والتعلم والتفهم والتطور، وقبل كل ذلك المحبة وقبول الاختلاف، مما يجعل الحياة مع الآخرين متعة وهناء وعشرة طيبة.

لم يكن أهل شبرا يتحدثون عن الآخر، فالآخر لفظ غريب لا وجود له من الأساس، لم يدركوه في الوعي الجمعي؛ لأنهم «أهل وجيرة وأصحاب»، والعلاقات بسيطة وعلى سجيتها، والمسافة بين الأنا والآخر مجرد «فركة كعب» نقطعها في نكتة وعشرتين طاولة، ووقوف على الناصية، وطبق أرز باللبن في المواسم والأعياد وزيارة عائلية وذهاب إلى السينما ورحلة نيلية وعزومة على العشاء وسهرة جماعية.

وهذا شيء طبيعي في حي يسكنه مصريون وأجانب من جنسيات مختلفة، حي دولي وإقليمي، لكن عرق الروح المصرية ضارب بجذوره في تلافيف أدمغتهم وأنسجة خلاياهم وشرايين دمائهم.

خلطة يمكن أن تجدها في عمارة واحدة، مصريون على أرمن على لبنانيين، أو مصريون على طليان وسوريين، أو مصريون على يونانيين وفلسطينيين، مسلمون سنة ومسيحيون أرثوذكس وبروتستانت وماورن وإنجيليين وكاثوليك.

خلطة يندر أن توجد في بيت واحد في أي مكان في العالم، ولها هذه الصفات والعلاقات الرائقة مثل اللبن الحليب، بشر يجمعهم حب الحياة والضعف الإنساني، يعبدون الله كُلٌّ بطريقته، يُصلّون ويصومون ويتمسكون بكتابه، لكنهم أيضاً يمرحون ويغنون ويرقصون ويقعون في المعاصي ويستغفرون ويعترفون بالخطايا!

ياه ما أجمل الحياة في شبرا، ذكريات محفورة تصد طبائع النسيان وقدرة

الزمن، كيف يمكن أن أنسى الأستاذ «وديع» مدرس اللغة الإنجليزية، رجل طويل نحيف حاد الطباع، أرثوذكسي شديد التدين والصرامة، حين يدخل إلى الفصل يمكن أن تسمع دبيب النمل، ويظل يشرح ويعيد ويزيد، كما لو أنه يحاول أن يسقينا «اللغة»، وفي يوم دخل إلى الفصل وكتب جملة طويلة على السبورة، وجاء ناحيتي، ربت على كتفي وسألني:

– اذهب وأعدْ صياغتها بطريقة أخرى.

وحين فعلتُ صفّق بشدة وسعادة بالغة:

– جميل جميل.

ومدّ يده في جيبه وأخرج خمسة قروش ورقية ووقّع عليها باسمه.. من يومها أحببت اللغة، ولم أتوقف عن تعلّمها.

و«سانت تريز» حين أخذتني أمي إلى زيارتها وأنا مريض، طلبت مني أن أشعل شمعة للعذراء، ففعلت ذلك بمنتهى الخشوع، وتعلقت بهذا التصرف سنوات طويلة، وكنت كلما مررت بالكنيسة فأدخل وأشعل الشمعة، وكان أبونا «مينا» يستقبلنا باشاً هاشاً، ويطبطب على ظهورنا بودٍّ شديد، ويودِّعنا قائلاً: في رعاية الله.

وعمّ «فتحي» صاحب الكشك الشهير على سُور مدرسة «الراعي الصالح»، ينثر عليه كتب طه حسين وعباس العقاد وتوفيق الحكيم وسلامة موسى ونجيب محفوظ وسلسلة (اقرأ) الشهيرة وروايات عالمية، وروايات الجيب، بعضها جديد وبعضها مستعمل، ونستبدل بالروايات القديمة روايات جديدة بقرش صاغ.

و«مجدي ويصا»، وما أدراك ما «مجدي ويصا»، كان حريفاً يلعب معنا الكرة الشراب في فريق سميناه «المحبة»، وكنا نلعب مع الفرق الأخرى على «باصة»، و«الباصة» عبارة عن ورقة ندوّن فيها نتيجة المباراة، واعتراف بالفريق الفائز،

وثيقة نعاير بها بعضنا بعضاً في مرح دون جنازير أو مطاوٍ أو شماريخ، وذات مرة جاءنا «مجدي» مضروباً كان يلعب مع فريق تعرف عليه في كنيسة خماروبه، وانتهت المباراة بخناقة وضرب، فاجتمعنا ليلاً؛ لنبحث كيف نردّ على من ضربوا «ابن حتتنا»، واتفقنا على القيام بغارة على شارع المعتدين، وكانوا شلة من أولاد مسلمين ومسيحيين، ضربناهم وعدنا جرياً وهو معنا، أولاد شارعنا ضد أولاد الشارع الآخر البعيد، لم يكن الدين يفصل بيننا، بل أصلاً لم نفكر فيه بهذا الشكل، كنا «فريقاً واحداً»، لم ترد كلمة مسلم ومسيحي على لساننا أبداً، بل لم أعرف حكاية المسلمين والمسيحيين بهذا الشكل الغريب العجيب إلا بعد تخرجي في كلية التجارة حين وقعت أحداث الزاوية الحمراء!

ولا يمكن أن أنسى حكاية السيدة «سمر»، وكانت «سمر» متزوجة من الحاج «عياش»، بعد أن طلّق أم العيال، وهو معلم كبير صاحب عربات نقل ثقيل بمقطورة يقترب من الخمسين، ويكبرها بأكثر من ثلاثين عاماً، ويسكنون بالدور الأول من بيت ملك في حدائق شبرا، وأنجب منها ولداً وثلاث بنات، وتعرّفت الست سمر على «نادر حنا» شاب يصغرها بستة أعوام وربما أكثر، تعلقت به، بل جُنّت به، وطلبت الطلاق وتزوجته عرفياً، وتبرّأ منها أهلها وأولادها، وابتعد عنه أهله ونبذوه، وعاشت معه في دوران شبرا، على مسافة أربعة أو خمسة محطات ترام عن بيتها القديم، دون أن تعلن لأحد عن عنوانها إلا لواحدة من بناتها كانت الأصغر، ولم تقطع معها حبل الود، وهي التي عرفتُ منها هذا السر الخطير.

وقع هذا الحادث في هدوء، ودون تحريض وفتنة وتشهير.

وما زالت شبرا محتفظة بروحها، وإن تغيّر شكلها كثيراً.

(٩)
العيدية.. مهر أمي

قالت أمي ضاحكة:

– خالك «عبده» أخذ مهري وطفش من البلد، وهذا آخر زواجي من أبيك تسعة أشهر.

سألتها:

– كم كان المبلغ؟

قالت:

– خمسة عشر جنيها..

لم يكن مهر أي بنت ريفية في نهاية الأربعينيات، يزيد على عشرين جنيها في أحسن الأحوال، حتى لو كانت ست الحسن والجمال.

وحين علمت بهذه الحكاية قررت أن أستردّ فلوس أمي، لم يكن خالي «عبده» يزورنا على الإطلاق، ولا أتذكره أبداً في شقتنا بشبرا، وكنت أتردد عليه مرتين في العام، مرة في العيد الصغير، ومرة في العيد الكبير، فكان يعطيني جنيهاً كاملاً عيدية، ويبدو أن إحساسه بالذنب كان دافعاً لهذه النفحة الضخمة، فالجنيه في يد صبي في الستينيات مع بقية العيديات والعطايا بمثابة كنز سيدنا سليمان، سينما في وسط البلد، وكابتشينو في الأمريكيين، وطبق كشري عند جحا أو صبحي، ولو كنا بالقرب من سينما مترو يبقى ساندويتش سجق أو كبدة إسكندراني عند

obeikan.com

الأشول، وزجاجة سباتس وهي مياه غازية شهيرة في ذلك الزمان، وجيلاتي من إكسلسيور، وممكن شاي «كومبليه» مع قطعة جاتوه في حديقة جروبي.

بعد عامين أو ثلاثة لم يكن ترددي على خالي «عبده» مقصوراً على نيْل العيدية واسترداد مهر أمي جنيهاً جنيهاً، ولكن من أجل رؤية الأستاذ إحسان عبد القدوس، كان خالي «عبده» وكيل أعمال خواجة مصري من أصل يوناني، يستأجر بضعة جراجات في حي الزمالك ومنطقة وسط البلد، وكان واحداً من هذه الجراجات تحت العمارة التي يسكن فيها الأستاذ «إحسان» في شارع الجبلاية على النيل، بالقرب من حديقة الأسماك.

كنت بدأت قراءة روايات «إحسان» مبكراً، «الوسادة الخالية»، «أنا حرة»، «لا شيء يهم»، «في بيتنا رجل»، «الطريق المسدود»... وغيرها، كنا شلة أصدقاء نتبارى في التهام الرواية في ليلة واحدة، ثم نفصلها لبعضنا البعض على ناصية شارعنا بصوت عالٍ، شخصياتها وأحداثها، وكنا متيمين بـ«النظارة السوداء»، عالم ساحر مثير وغريب على صِبية في أوائل سن المراهقة، حب ورغبة وجنس وبنت أجنبية وشاب فاسد ومهندس مثالي وضعف إنساني وصراع من أجل حقوق العمال.

روايات إحسان عبد القدوس كانت أشبه بمدرسة اجتماعية حديثة لنا، تُعلّمنا التمرد والخروج من أسر التقاليد وهجر المألوف الممل، والشجاعة في مواجهة المجتمع، والسباحة ضد التيار، وأيضاً تسلّحنا بثقة في أنفسنا، فهؤلاء المتمردون في رواياته معجونون بالعفرتة والإرادة والفروسية، وعندهم قدرة على إعادة تشكيل الواقع، وتغيير العالم من حولهم حتى لو ضحوا بأرواحهم.

كنت أذهب إلى خالي في عمارة الزمالك دون سواها، أجلس هناك ساعة أو ساعتين أراقب المدخل والشارع، ربما أرى الأستاذ ذهاباً أو إياباً، ولم أره إلا بعد عملي صحفياً بسنوات في «روزاليوسف»، وبالطبع كان الأستاذ دافعاً من دوافع اختياري لدار «روزاليوسف» حين قررت احتراف مهنة المتاعب.

خالي «عبده» لم يكن حُنيَّناً، ولم أضبطه ولا مرة زرته فيها مبتسماً أو منفرج الأسارير، دائماً على غضب، يشخط وينطر في عماله، مرتدياً «البدلة» الكحلي المشتراه من بنزايون، وكانت شهيرة وقتها ومن إبداعات الأفكار الاشتراكية بعد التأميم..

كجزء من المساواة في توحيد الأزياء، وعماله ينظرون إليه في صمت ويتحركون في عجالة، هذا يمسح سيارة، وذاك يغسل عربة، وثالث ينظف المكان، ومنهم أخوه الأصغر «أحمد» العطوف المنكسر؛ لأنه لم ينجب ولداً وكان نفسه فيه ولا يكفّ عن إعلان شغفه لأمي، كلما زارنا في شبرا، وهو الذي أدخلني المدرسة أول مرة في غياب أبي شهرين، وفعلاً تزوج مرة ثانية من صبيّة فلاحة تصغره بعشرين عاماً من أجل الولد، فأضافت له بنتين، ومات وتركهما صغيرتين، لكن الفلاحة «الواعية» عملت بجد، وعلمتهما وتخرجت إحداهما في كلية الحقوق، والأخرى في كلية العلوم، وهو ما فشل فيه الولد الوحيد «حسين» ابن خالي «عبده»، الذي هجر المدرسة واشتغل بالتجارة، وأيضاً أخواته البنات اللائي حصلن جميعاً على دبلوم تجارة.

كان خالي أقرب إلى شخوص قصص إحسان عبد القدوس، تحديداً شخصية «نجيب» في قصة «القط أصله أسد»، دون أن تسقطه زوجته «نوارة» في حبائل صديقتها «صفية» بالاتفاق معها، لتضبطه متلبساً بالخيانة، فتتحكم فيه وتُسَيِّره على هواها، فقد كان خالي منصاعاً طائعاً لزوجته، أوامرها مجابة ورغباتها حاضرة، هكذا قالت لي أمي وهي تحكي لي حكاية «مهرها المهدور».

وبشقاوة الصغار قلت في نفسي:

– لازم أشوف زوجة خالي التي يتحدثون عنها؛ عن قوّتها وسطوتها، فأكيد جمالها سرّ قوّتها.

وذهبت إليهم ذات مرة متحججاً بأمر لم أهتمّ بأن أتذكره بعدها، كانوا يسكنون في روض الفرج في شقة بالدور الرابع مرتفعة السلالم مُجهدة، فأدركت

لماذا لا تداوم أمي على زيارتهم، كما تفعل مع بقية عائلتها وأقاربها..

لم تكن زوجة خالي جميلة، ربما فيها مسحة خفيفة، لا تُلاحظ إلا بإمعان النظر، ربعة، ممتلئة إلى حد ما، صارمة الملامح مثل علوية جميل في أفلام حسن الإمام، صوتها حاد مندفع كما لو أنه صادر عن جنرال بتعليمات إلى جنوده في ميدان قتال.. فلا يمكن أن تسمع حساً من بناتها الثلاث، لكن ابنها الوحيد «حسين» يبدو متميزاً في ملبسه ومكانته وشقاوته.. ويشاركها في الشخط والنطر على البنات..

لم أكرر الزيارة في هذا الجو الصارم.. ولم أفهم سرّ ضعف خالي تجاه زوجته..

ومرّت السنوات سراعاً، اقتربت فيها من نهاية تعليمي الثانوي، وكنت قد حصلت من خالي على أربعة عشر جنيها عيدية، فانقطعت عن الذهاب إليه في الزمالك.

وباعدت بيننا الأيام حتى وجدت أمي تبكي وتسرع في لَبْس جلبابها الأسود والطرحة السوداء وتنادي عليَّ:

– تعالَ نروح روض الفرج امرأة خالك «عبده» ماتت.

لم تكن قد جاوزت الخامسة والأربعين..

سألتها:

– هل كانت مريضة؟

أجابت:

– الشر بره وبعيد دهسها القطار.

وعرفت أن زوجة خالي كانت تعبر مزلقان السكك الحديدية، زائرة لصديقة لها في مساكن الشارع الجديد، كما كنا نسمي شارع أحمد حلمي الممتد شمالاً من محطة مصر إلى أول شبرا الخيمة، وبصحبة أصغر بناتها، فلم تنتبه للقطار القادم

من الإسكندرية، فتعثرتا وسقطتا تحت عجلاته.

كان خالي منهاراً، منخرطاً في بكاء لا ينقطع، وعيناه حمراوان بلون الدم، ربت على كتفه واحتضنته لأول مرة في حياتي، فاستسلم دافئًا رأسه في صدري كطفل يتيم يستنجد بأي دفء إنساني، وأحسست بحب عميق تجاهه.

مرّت شهور من الحزن زرته فيها بضع مرات، ظلّ مكتئباً مكسوراً من داخله كأنه كبر عشرين سنة، ولم تتركه أمي وخالاتي الثلاث، اللائي قبض السؤال الضروري على أفكارهن دون فكاك: من يراعي بنات خالي، وكُن في سن المراهقة؟

واقترحن عليه الزواج في أسرع وقت ممكن.. خاصة وهو يغيب في شغله ساعات طويلة، وأحياناً يبيت فيه.

تمنّع في البداية.. ثم تزوج من فتاة عانس في أول الأربعينات من عمرها، وتمتُّ بصلة قرابة لزوجته الراحلة، ورحنا نهنئه، وحين اقتربت لأسلّم عليها كانت نسخة من زوجته الأولى جسماً ورسماً.

وحين هلّ علينا.. وجدته خالي القديم، وقد عادت إليه طبيعته التي كان عليها.

obeikan.com

(١٠)

«وحيد زمانه»

مسألة محيرة تشبه لغزاً من الأساطير الغامضة، كيف لا تجمعني ذكريات طفولة مع وحيد ابن خالتي «أم محمد»، وحيد عاش طفولته وصباه معي في قرية كفر مناوهلة، ولا توجد صورة واضحة له في ذهني ونحن صغار، ربما صور ضبابية أشبه بمقطع حلم خافت يصعب روايته، عن لعب الكرة الشراب في الجرن الكبير، والعوم في بحر شبين، أكبره بخمس سنوات، وأول مشهد واضح له في مخيلتي كان مراهقاً يقترب من سن الشباب، حين كان يجيء إلى بيتنا في شبرا زائراً لأيام، ويعزمني على سينما شبرا بالاس بشارع الترعة البولاقية، أو سينما مسرة قبل سوق روض الفرج الشهير الذي انتقل إلى مدينة العبور في منتصف التسعينيات من القرن العشرين، ونقطع تذكرتين «ترسو» بخمسة قروش، ونتفرج على ثلاثة أفلام (عرض مستمر).. وتوطدت علاقتنا وصرنا صديقين على مغامرات الغرب الأمريكي، وأسطورة هرقل، وطيران سوبرمان، ورعب دراكولا مصاص الدماء، وغناء فريد الأطرش، ورومانسية عَبدالحليم حافظ، ورقّة مريم فخر الدين، ودلع شادية، وفتونة فريد شوقي، ومقالب توفيق الدقن، وشيطنة محمود المليجي.

حاولت مراراً بعد أن وعيت أن أفهم سبب غياب هذه الصورة الذهنية لنا ونحن صغار، ربما لأنّي لم أكن أحب أبيه عّم «عبد الجليل»، رجل طويل القامة نحيف، ملامحه عادية جامدة، له أذنان طويلتان مثل «أبو قردان» أو هكذا أطلقت عليه، وكان يعاملني بعنف ويُظهر لي عدم رضاه، وربما بعض الكراهية

لأسباب لا أعرفها، قد تكون شقاوتي هي سبب امتعاض عمّ «عبد الجليل» منى، فلم يحدثني ولا مرة في حياتي دون تكشيرة مستنكرة وجودي في دار ستي «تفيدة»، قد يكون ذلك صحيحاً، فذات مرة استأجرت دراجة من عمّ «شحاتة الكلوباتي» نسبة إلى الكلوبات التي كان يؤجرها في الأفراح وسرادق العزاء المنصوبة غالباً في «الجرن الكبير» على الزراعية، وركبت الدراجة وسرحت مع نفسي متجولاً في كل قرى وكفور مركز الباجور، من صباحية ربنا إلى أذان المغرب، قطعت بها ما لا يقل عن أربعين كيلومتراً؛ شغفاً باكتشاف الأماكن والسكك والدروب، وحين عدت ألقيت بالدراجة أمام باب المحل، وأخذت ذيلي في أسناني وطيران في الشارع، وجرى خلفي عمّ شحاته، واختفيت في القش المكوم فوق سطوح دارنا، ووقف عمّ «شحاتة» يردح ويسبّ، ولم تكن خالتي «مَنْبِية» ولا ستي «تفيدة» موجودتين، فصادفه عمّ «عبد الجليل»، الذي استقر في دار خالي «أحمد» الملاصقة لدارنا، وكان «عبد الجليل» يعيش مع خالتي في إمبابة، وحين ضاق الرزق سألت خالتي أخاها أن تسكن في داره، فسمح لها من أجل العيال، ولدين وبنت، وفتح «عبد الجليل» أول محل فول وطعمية في قريتنا.

طلب منه عم «شحاته» عشرة قروش تعويضاً عن الساعات الزائدة التي غبت فيها بالدراجة، ورفض «عبد الجليل»، واشتبكا معاً بالكلام كعادة أهل القرية، دون أن يمسك أحدهما في خناق الآخر، وتدخّل أولاد الحلال من هنا وهناك، و«شحاتة» مصرّ على القروش العشرة و«عبد الجليل» ينكرها عَلَيْه:

– هو أنا كنت خلّفته ونسيته؟ الولد تارك أهله في مصر، وعايش هنا من غير سبب.

كانت خالتي «أم محمد» مثل زوجها، تراني ولداً شقياً، ربما وقتها كانت تحذر ابنها «وحيد» من اللعب معي، حتى لا أفسده.

لكن «وحيد» ابن خالتي كان متمرداً بالفطرة، ولم يكن في حاجة إلى شقاوتي،

خرج من المدرسة مبكراً؛ لأنه لا يهوى التعليم، ولا شخط المدرسين، ولا ثقل التقليب في كتب المدارس وعمل الواجب، وأدار ظهره للفِلاحة وطين الأرض، ولم يفلح غضب أبيه ولا تهديداته في ردعه، فهجر القرية وهو في الثامنة عشرة، وجاء إلى القاهرة، مدينة الفرص والأحلام، فـ«الكفر» بأزقّته وفقره أضيق من طموحه ووسامته.. والسينما منحته خيالاً واسعاً قرّر أن يطارده طول حياته.

غابت أخبار «وحيد» عني عامين أو ثلاثة حتى فوجئت بسيارة «بيجو ١٠٤» واقفة أمام بيتنا ونازل منها شاب أنيق، قميص حرير مفتوح من على الصدر، بنطلون «شارلستون» من موضة السبعينيات، شعر طويل مصفف بعناية، وسيجارة «مارلبورو» في فمه مثل أبطال الأفلام.

كان «وحيد» ابن خالتي..

عرفت منه أنه يعمل سائقاً خاصاً في الزمالك عند الموسيقي الشهير «أحمد فؤاد حسن» صاحب الفرقة الماسية، وراح يروي لي حكايات عن الأشخاص المهمين الذي يلتقي بهم، وأعمال البيزنس التي تتم أمامه.. كان عصر الانفتاح بدأ والسوق مفتوح على مصراعيه.

وبعدها تزوّج من موظفة حسابات بنقابة الموسيقيين، وسكن في شقة بإمبابة.

يغيب «وحيد» شهوراً وأحياناً سنة، ثم يعود بالأحضان والحكايات كأننا كنا مع بعض بالأمس، المتغير هو نوع ماركة السيارة المستوردة، وصاحب العمل الذي يشتغل لديه، وكان أغلبهم فنانين ورجال أعمال مشهورين من الذين تُنشر صورهم في الجرائد.

في هذه المرة غبتُ أنا وسافرتُ إلى الخليج ثلاث سنوات بعد اغتيال الرئيس أنور السادات، وعدتُ في منتصف الثمانينيات، لأجده يعمل عند الراقصة «سحر حمدي»، وكانت «سحر» هي حديث المدينة، اشتبكت مع ضابط شرطة في ميدان الجلاء فجراً، بعد أن أنهت «نمرتها» في الفندق القريب، شتمته، شتمها، حاولت أن تضربه، صفعها على وجهها، هددته:

– وحياة أمك لأنقلك.

وبعد ثلاثة أيام بالضبط صدر أمر نقل للضابط إلى أسوان، وكتبت الصحف الحكاية في صدر صفحاتها، وظلت تلت وتعجن فيها وتنتقد لأكثر من أسبوعين، وهاج الأستاذ إبراهيم سعدة رئيس تحرير أخبار اليوم، وشنّ حملة شعواء على قرار النقل ووزارة الداخلية التي لم تحمِ ضابطها من راقصة منفلتة اللسان ونفوذ طاغ خلفها، ولم يتغيّر شيء.

شغلني الموضوع إلى حد كبير، واحتلّ تفكيري ليلاً ونهاراً: من أين لراقصة بكل هذه القوة؟

وبرقت في ذهني فكرة حوار صحفي معها، ربما أعثر على مفتاح السر.

ولجأت إلى «وحيد»..

زجرني قائلاً:

– يا أستاذ أهم حاجة في شغلتي هي حفظ الأمانة وأسرار الشغل.

شمال يمين لم ينطق بحرف عنها، وقال:

– خذ رقم تليفونها وكلّمها، وأنا خارج الموضوع.

ونجحت في الوصول إليها، وقابلتها في شاليه على حمام سباحة في فندق شهير بالزمالك.. ثم انتقلنا إلى مطعم الفندق، وطلبت نبيذاً وطبق سلاطة كبير، ودار الحوار هادئاً على طريقة: أين ترعرعت سيدتي؟، وانتظرتُ حتى لعب النبيذ برأسها، وأخذت راحتها في الكلام، وسألتها السؤال الساذج:

– أنت راقصة موهوبة ومعك فرقة موسيقية تعزف مزيكا خاصة من أشهر الملحنين في البلد.. لكن كل هذا فن ضائع بين المنتشين من السكارى في الكباريهات، غير مدركين لفنّك؟!

ردّت عليَّ بحدة:

– لا يا حبيبي أنا «أرقص» في أحسن بيوت مصر.

وعددتْ أمامي بيوت المسئولين الكبار التي دخلتها، وأحيت فيها حفلات.. كانت بعض الأسماء مُرعبة، يقف لها المرء «زنهار» من مجرد ذكر مناصبهم دون وجودهم.

وكتبتُ الموضوع، وسلّمته لرئيس التحرير، ولم يُنشر أبداً، ولم أعرف مصيره حتى الآن.

وكان «وحيد» كلما التقينا يعايرني:

– يعني فلقتني، وفي الآخر لا حسّ ولا خبر.

وغاب فترة ربما أطول من المعتاد، ثم ظهر في سيارة ألمانية فاخرة «بي أم دبليو»، وقذفني بخبر صاعق:

– اسكتْ.. سحر «تشيّخت».

ألقيتُ عليه نظرة تعجب لا أفهم ما يقصده.

قال:

– اعتزلت الرقص، وتنقبت، وتتردد حالياً على الشيوخ والمساجد، وتستقبل قارئات للقرآن.

ضحكتُ وسألته:

– وأنت أين تعمل الآن؟

قال:

– في التجارة مع بهوات.. أولاد باشوات بحق وحقيقي.

وراح يروي عن الدنيا لما تحنّ وتفتح له أبوابها على مصراعيها، فصار شريكاً من الباطن في مكتب استيراد وتصدير، وانتقل للعيش في عمارة حديثة

بالمهندسين تطلّ على نادي الصيد.

وزرته بعد فترة في شقته الفاخرة الواسعة ذات الرياش الغالي.. فضحك وقال متباهيًا:

– معرفة أصحاب النفوذ والاقتراب منهم أهم من التعليم، لو وثقوا فيك يرفعونك لسابع سماء.

قلت:

– كل واحد وحلمه.

مرّت سنوات قبل أن يرنّ تليفوني المحمول، كان «وحيد» على الطرف الآخر يكاد يبكي..

سألته:

– ماذا حدث؟

قال:

– ابن الباشوات لهف فلوس الناس وهرب للخارج.. لمَّ فوق المائة مليون جنيه من العملاء، غير قروض البنوك وهي لا تهمني.

سألته في لهفة:

– فيه أوراق في الشركة باسمك؟

قال:

– لا.. لكن المصيبة أكبر.. بقيت على الحديدة، كيف أعيش وكيف أدفع مصروفات المدارس الأجنبية للولد والبنت.

ثم عاد «وحيد» إلى إمبابة، لكنه فقد كثيراً من بريق النجومية الذي كان يلمع منه.

(١١)

بنت الحاج «عياش»

قابلتها في حفل عيد ميلاد طلعت عبد الحارث، كانت في السادسة عشرة، خمرية، عودها ملفوف في أناقة، شعرها ليل مفرود بحرية، ملامحها مرسومة بدقة، كانت تتمايل وتهتز ببراعة على موسيقى أغنية «فكّروني» لأم كلثوم، ولا أحسن راقصة في مصر.

بعدها تسلّلنا إلى البلكونة دون قصد بعيداً عن الزيطة والزحام، تحدّثنا عن أشياء عادية تخللها بعض الضحكات، وقالت لي:

– أنا في ثانية إعدادي!

وحين استسلمت ملامحي لدهشة ساخرة طاغية، علقت بدلال تلقائي:

– أصلي أحب أنجح على سطر وأسيب سطراً.

انتبهت خالتي مَنْبِية، أخذتني من يدي وانتحت بي جانبا مهددة:

– خذ بالك.. أنت في ثانوية عامة.. وهي معجونة بماء العفاريت.

هززتُ رأسي مستنكراً تحذيرها..

«بطة» وهو اسم الدلع صاحبت أختها الكبرى «سميحة» إلى حفل عيد الميلاد، كان طلعت ابن عمّ «عبد الحارث» زوج خالتي من زوجته الأولى قد تخرج من معهد صناعي عال، واشتغل في المصانع الحربية، وتحرضه أمه وخالتي وأختاه البنات على الزواج:

– أصحابك كلهم خلفوا وأنت قاعد «زي» البنت البايرة.

انتقل معهن من بيت إلى بيت، ومن خطبة إلى خطبة، سافر لها أحياناً خارج القاهرة، دون أن يكمل نصف دينه، سمعت سميحة بأمر خِطبات «طلعت» و«زن» عائلته عليه، فتطفّلت بالقدوم، «سميحة» متزوجة من ثلاث سنوات ولم تنجب، وعلى خلاف مزمن مع زوجها منذ أول يوم دخلت إلى بيته في عابدين، تزوجته غصباً بأوامر مسنونة من أبيها الحاج «عياش»، وتفننت في كل أساليب «الزعل» لتعود غاضبة بالشهور إلى بيت أبيها في حدائق شبرا، وفي هذه المرة كانت تسعى جادة إلى طلاق بائن، وترسم على الزواج من طلعت، متغافلة عمداً أن أباه «عبد الحارث» مستحيل أن يُوافق على زواجه منها؛ بسبب سيرة أمها.

الأم «سمر» كانت الزوجة الثانية الدلوعة للحاج «عياش»، فتاة يافعة جميلة التقاها مصادفة في مناسبة لا يذكرها، ومدّ معها حبال التواصل، اشترطت عليه أن يطلّق زوجته الأولى بعد عِشْرة أنجبت له فيها ثلاثة صبيان، وعاشت «سمر» في بيته خمسة عشر عاماً، ملكة متوّجة على قلبه، ثم انقلبت عليه، وبدت كما لو أنها «زهقت» من الحاج لأسباب لا يعلمها إلا الله، حاول أن يسترضيها وهي مثل حجر جرانيت غير قابل للزحزحة، ثم رضخ في صمت، وطلّقها غيابياً حين تناهت شائعات مدببة إلى مسامعه، بأنها تلتقي شاباً مسيحياً يصغرها بست أو سبع سنوات، ثم تزوجت من الشاب المسيحي عرفياً، وعاشا في دوران شبرا «مقطوعين من شجرة».

كان أبي يعمل مع الحاج «عياش»، وذات مرة سأله الحاج:

– أريد عروساً ريفية خاماً.

حكى أبي لأمي الحكاية، روتها لخالتي «مَنْبِية» كعادة أهل الريف المهاجرين إلى العاصمة، ردّت خالتي على الفور:

– عندي عروسة من البلد.. مكسورة الجناح وبنت ناس «غلبانة» تعيش،

وسترها بركة وصدقة.

نقل أبي الخبر إلى الحاج «عياش»، واصطحبه إلى عمّ «عبد الحارث» وخالتي، سافروا جميعاً بسيارته الفيات في اليوم التالي إلى كفر مناوهلة، وعاد الحاج بعد يومين وفي يده «زينب» عروسه الجديدة، وحمل الجميل لخالتي، وتوثقت علاقته بعمّ «عبد الحارث»، وتبادلا زيارات عائلية..

مرّت بضعة أيام على حفل عيد الميلاد، وفجأة دخل عليَّ أبي وأنا منكبّ على كتبي:

– الحاج «عياش» طلبك.. اذهب إليه.

طبعاً أعرف الحاج، وسلّمت عليه في مناسبات كثيرة، حين كنت أتردد على أبي في المكتب كلما غاب عنا، وكنت أراه قاسياً بخيلاً من الطريقة التي يتعامل بها مع عماله، ولم يكن بيننا ما يستدعي أن يطلبني.

قال لي الحاج:

– ابني مشمش في الشهادة الابتدائية في حاجة إلى مساعدة، ومطلّع عيني في المدرسة.

– آسف يا حاج، أنا عندي ثانوية عامة.

قال:

– ساعة.. يومان في الأسبوع.. ومنهم يوم الجمعة.

قبلت على مضض، وقلت في نفسي أسبوعين ثلاثة وأجد حجة للزوغان.

كانت «بطة» هي التي تستقبلني في كل مرة، نتحدث معاً على ما يأتي أخوها بالكتب والكراسات، ولا تدع فرصة دون أن تهل علينا ونحن جلوس في حجرة الصالون.. تطيل النظر، وتسألنا إن كنا نريد شيئاً.

أحياناً كان «مشمش» يختفى أو في مشوار خارج البيت، أجلس انتظره وهي

معي، تحاول أن تستدرجني إلى مساحات عاطفية مشتركة، فأنتقل بالكلام إلى حكايات عن أدباء وشعراء وفنانين أو المذاكرة والمستقبل، مساحات دمها ثقيل على قلبها، فكانت تغتاظ قائلةً:

– أنت في منتهى الملل.. لما نشوف مجموعك في الثانوية العامة يا فالح.

وفي آخر مرة عندهم لمحت الحاج «عياش» في حجرة داخلية، ناداني وقال لي:

– «بطة» نازلة وسط البلد غداً، اذهب معها ولا تتركها وحدها.

كان أصعب يوم في حياتي، دققتُ على باب الشقة، خرجت «بطة» في جونلة ميكروجيب فوق الركبة بعشرين سنتيمتراً على طريقة ميرفت أمين في أدوارها السينمائية الأولى، وبلوزة وردي «شابونيز» مفتوحة، وحذاء بوت أسود، صرخت فيها:

– ما هذا؟

قالت:

– هكذا أخرج.

قلتُ:

– أنت في حاجة إلى قسم شرطة للحماية.

ضحكت ملء شدقيها وسخرت:

– أنت خائف؟

تنمّرت:

– طبعاً لا..

سبقتني خارجة من باب العمارة، ومضت من الناحية الأخرى بعيداً عن

مكتب أبيها الواقع على ناصية الشارع، نزلنا إلى وسط البلد، من طلعت حرب للشواربي، ومن عدلي إلى شريف، تشتري أحذية وحقائب وإكسسوارات حريمي..

مشيت بجوارها خجولاً مرتبكاً مشوش الذهن، لم تكن القاهرة تعرف التحرش بهذه الوقاحة ولا البذاءة، بعض الصفافير والبحلقة من شباب صغير أو حرفيين يعملون بالمنطقة، أو من ستات عجائز يمصمصن شفاههن في تعجّب..

ثم دخلنا سينما كايرو، وشهدنا فيلماً مدهشاً (أهلاً - وداعاً)، وهو عن بائع سيارات إنجليزى (لعب دوره مايكل كروفورد)، يصادف البارونة داني (الممثلة جينيفيف جيلز) التي تتعطل سيارتها الـ«رولزرويس» أمامه، يتعرف عليها ويتقرب منها، ويُمضيان بضعة أيام معا كعاشقين، وتختفي هي فجأة دون أن يعرف اسمها بالكامل.

بعد شهور يتعاقد البارون «كيرد جورجينز» مع بائع السيارات ليعتني بما يقتنيه من تحف السيارات القديمة، ويستضيفه في قصره، فيكتشف أن «داني» هي زوجة البارون، ويقع في حبها فعلاً، ويطلب منها أن تهجر البارون، وتهرب معه، ويعلم البارون بالأمر، فيستدرجه إلى حوار صاخب ينتهي بأن يقول له:

- لا تتعب نفسك، فستعود إليّ حتماً.. فأنت لن تستطيع أن توفر لها ما تريده.

خرجنا من السينما، ركبنا ترام شبرا القادم من العتبة، وقررت يومها ألا أذهب إلى بيتهم مرة ثانية، أبلغت أبي:

- من فضلك عندي ثانوية عامة.

مرّ شهر ربما أكثر، ووجدت نصف شباب الحي واقفاً على ناصية شارعنا، وحين رأوني ابتسموا بخبث مفضوح، وأشار بعضهم ناحيتي، وهو يهمس بكلمات لم أسمعها، وبعضهم مشى خلفي صامتاً إلى باب البيت، بمجرد أن

دخلت نظرت لي أمي نظرة متسائلة:

– «بطة» بنت الحاج «عياش» مستنياك.

تسمّرت مكاني لحظة واتّسعت عيناي، سلّمت عليها متسائلاً:

– خير.

قالت بدلال معتادة عليه:

– فيه مسألة صعبة فى الهندسة.. ممكن تحلّها.

تركتنا أمي، قالت «بطة» كلاماً عاطفياً كثيراً، لم أردّ..

أتت أمي بالشاي.. وجلست بجواري.

غادرت «بطة» بيتنا وشباب الحي يلاحق بنظراته «جيبتها» القصيرة، ولم أرها إلا بعد أربع سنوات.. كنت في ثالثة تجارة، حين مات الحج «عياش»، ذهبت إلى بيتهم للعزاء، طلبت أن نجلس منفردين، قالت بقوّة:

– خائفة على ميراثي، إخوتي الرجال من زوجة أبي الأولى يسيطرون على كل شئ، هل ممكن نتزوج وتقف لهم وتأخذ منهم حقي في العربيات والعمارات.

سكتّ ولم أنطق.. غادرتْ الغرفة.. ولم أرها من يومها، ولم أسمع بها قط.

(١٢)
فليسقط «العقّاد»

كنا أحياناً نقف على ناصية شارعنا نرتاح قليلاً من مذاكرة الثانوية العامة، نقرأ أشعاراً عاطفية تسيل شغفاً وولعاً، وخواطر ننسجها من مشاعر رومانسية متأججة ممزوجة بالشجن الآسر، كانت تستهوينا حكايات الحب المحروم من النهايات السعيدة.. قيس وليلى، روميو وجولييت، كُثَيِّر عزة، إبراهيم ناجي صاحب قصيدة الأطلال، والممثلة زوزو حمدي الحكيم، عبد الحليم حافظ ولبنى عبد العزيز في فيلم «الوسادة الخالية»، همفري بوجارت وإنجريد برجمان في «كازبلانكا»!

وفجأة وسوس لي الشيطان بجملة خبيثة، قلتها ضاحكاً:

– وصبري ونادية!

«صبري» أعزّ أصدقائي، كان يعشق «نادية» جارته عشقاً جماً، ولا يتصوّر الحياة دونها، يكتب فيها أشعاره وأحلامه وخواطره دون أن يبوح لها بمكنون قلبه، فقط ينتظرها في الداخلة والخارجة، يرنو إليها من بعيد، وكانت تحسّ به، وتمنحه كل فترة نظرة دلال تجعل حبال «الأسر» مشدودة دون أن تنقطع.

فإذا بـ«صبري» يكفهرّ وجهه وتسودّ ملامحه، ويسبّني بأمي وأبي، ويجري لا يلوي على شيء.

توتر بقية الأصدقاء، وانزلقوا في نفق صمت طويل..

رفعت رأسي نحوهم، وقلت مغادراً:

– انتهت صداقتي به إلى الأبد!

عشت بعدها أياماً في حالة سيئة، لا أصدّق ما قاله.. «صبري» يدرك أنني لا أقبل الشتيمة والسبّ بالأم والأب ولو من باب الهزار.. ولم يحدث ونحن أصغر سناً وأقل انضباطاً أن وردت كلمة سبّ على ألسنتنا.

مرّ يومان ثلاثة ربما أسبوع، وبينما كنت منكباً في حلّ مسائل الهندسة الفراغية، دخلت عليَّ أمي بكوب من الشاى، ونظرت لي نظرة خبرتها طويلاً، وقالت:

– «صبري» زارنا اليوم، وتحدّث معي وهو يعتذر.

بحدة قاطعة:

– لن أتحدث في هذا الموضوع.

كانت شخصية «العقاد» قد تلبّستني منذ فترة، كنت أهواه منذ قرأت له سيرته الذاتية «أنا»، وحفظت منها مقاطع عن ظهر قلب، خاصة تلك التي رسم فيها شخصيته على صورة «إنسان صلب الإرادة، قوي الشكيمة، حاد الطباع، صارم القرار، معتز النفس، متكبر، عنيد، متعالٍ، لا يعرف الضعف الإنساني إلى عقله ومشاعره سبيلاً».

وكلما كنا نتقابل وأصدقائي المغرمين بالأدب أردّد عليهم عبارة «العقاد» في سيرته:

– كل الناس إلا «عباس»!

وهي عبارة كان أصحاب «العقاد» الصغار وجيرانه في مدينة أسوان التي وُلد فيها وعاش أيام صباه يصفونه بها من فرط جبروت شخصيته.

وتابعت حكايات «العقاد»، مع الناشر العربي الذي جاءه متأخراً عن موعده

ربع الساعة، فردّه عن مجلسه، ولم يتعاقد معه، بالرغم من الإغراءات المالية الشديدة التي عرضها عليه، الحبيبة التي شكّ في حبها له، وظلّت تطرق على بابه بيديها حتى أدمتها دون أن يرقّ قلبه ويفتح لها، و«هتلر» الذي عاداه وكتب ضدّه وتنبأ بسقوطه وانهيار أسطورته، بينما جيوشه على أبواب الإسكندرية قادمة غازية قبل أن تخسر معركة العلمين، والملك «فؤاد» الذي تحداه علناً تحت قبة البرلمان، وهدده بقطع رقبة من لا يحترم الدستور..

هذه الحكايات سالت شظايا تسللت إلى خلايا عقلي وسطت عليه، وأخذت تتشكّل في تصرفاتي رويداً رويداً، البعد عن الهزار؛ لأنه ضعف، لا تسامح مع أي إنسان أخطأ في حقك، ولو دون قصد؛ لأن التسامح ضعف، والحب أيضاً ضعف، والتواضع ضعف، واستبدلت بشخصيتى الريفية المنفتحة البسيطة شخصاً جاداً صارماً عابثاً، منطوياً إلى حد ما، مرة سألني بعض الأصدقاء بعد أن لحظوا التغييرات الهائلة التي لحقت بي:

– ماذا بك؟

سألتهم بدوري:

– هل تعرفون من هو البطل الشجاع؟

قالوا بتلقائية :

– الذي يواجه الخوف وقلبه حديد، ويحارب بقوة دون وجل.

سخرتُ منهم:

– تعريف ساذج دارج بين العامة.. البطل في الحرب أو القتال ليس بطلاً؛ لأنه لو لم يقتل أعداءه بجرأة وقوة سوف يقتلونه هم، هذه شجاعة مُضطرٌ إليها وبطولة مُجْبرٌ عليها وتستند إلى الغريزة، ولم يختَرْها بإرادته، والغرائز نقيض السمو الإنساني الذي يمثله «أنا الأعلى»!

– وما تعريفك أنت للبطل؟

– «العقاد» يقول إن البطل هو ذلك الشخص الذي يلوي عنق ظروفه، ويسيّرها وفق مشيئته وإرادته؛ لأن الحرب مجرد لحظة أو فترة في عمر الإنسان، لكن الحياة بظروفها المتغيرة والمتقلبة «حالة دائمة»، والبطل هو الذي يمسك برقبة هذه الظروف في يديه أو يعمل على الإمساك بها، ولا يسمح لها أن تكسره أو تهزمه أو تُحبطه أو تُضعفه.

لم يرض أصدقائي عن التحول الذي حدث، وزاد الطين بلة دخول الفيلسوفين الألمانيين الشهيرين «نيشته» و«شوبنهاور» إلى حياتنا، ورحنا نقرأ نظرية الإنسان السوبرمان، والإرادة الفردية، والإرادة الجماعية، وعرفنا من أين استقى «العقاد» تعريفه عن البطولة..

تغرّبت عن نفسي تماماً، وعشت بشخصية «العقاد» كما رسمها لي خيالي، ملوّنة ببعض الرتوش المكتسبة من إنسان نيتشه السوبر وتعاسة شوبنهاور المكتئب!

كنتُ على هذه الحال، فلم التفت إلى المصالحة مع محمد صبري، بالرغم من محاولات الأصدقاء المشتركين.

سألني أحدهم:

– كيف لا تتحمل لحظة غضب وتوتر من أعزّ أصدقائك؟

قلتُ محتداً:

– لم أقل كلمة تسيء إليه.. وهذا سلوك همجي التسامح معه ضعف!

– هل تنتهي صداقة ثماني سنوات في خطأ؟ أنتم أصحاب من رابعة ابتدائي، مدرسة وبيت ولعب وسينما وخروج وأكل مع بعض.. عشرة طويلة.

– ولو.. الخطأ الأول هو الخطأ الأخير..

ثلاث سنوات وعلاقتي بـ«صبري» مقطوعة، لا حس ولا خبر، كل

محاولات الصلح سقطت في بئر «العقاد» و«نيتشه» و«شوبنهاور»، علّمني هؤلاء «الأشرار» أن النظر إلى الخلف خطيئة، ومن يسقط منك يسقط من عقلك ووجدانك إلى الأبد.. الحياة تمضي إلى الأمام، ومن يهينك لا يستحق صداقتك.

وفجأة وجدت محمد صبري أمامي، في حجرتي، وكنت عائداً من الكلية..

مدّ يده.. مددتُ يدي، شدّني إليه واحتضنا بَعضُنَا بعضاً بقوة، نسيتُ قسوة العقاد وسوبرمان نيتشه وكآبة شوبنهاور..

سألته:

- أين أنت الآن؟

قال في أسى:

- معهد تجاري بالزمالك..

وحكى لي ما ندمت عليه ولا أزال حتى الآن.. يا الله كم أذنبت في حق صديقي..

«صبري» كان متفوقاً في الابتدائية والإعدادية، من هؤلاء الذين يحصلون على المجاميع العالية، فوق خمسة وتسعين في المائة، التحق بشبرا الإعدادية، ثم مدرسة التوفيقية الثانوية درة مدارس شبرا.

ولأسباب لم أفهمها نجح في الثانوية العامة بمجموع ضعيف، يتناقض تماماً مع مستواه العلمي والمعرفي، فهو قارئ جيد، ذكي، قدرته على التحصيل عالية، ثم أعاد السنة فلم يتحسن حاله، واضطر إلى أن يدخل معهداً متوسطاً..

انشغل «صبري» بـ«نادية» انشغالاً كبيراً، وراح يتابعها، وهي تلاعبه وما زالت، حتى جاءني يسألني:

- ماذا أفعل؟

أحسستُ بجريمتي.. كيف جرّني عنادي وتكبري وغروري إلى التخلي عنه، تركته في لحظات عصيبة في حياته دون أن أقف بجانبه أشد أزره وأعيده إلى حالته الطبيعية، خاصمته وأنا صديقه الوحيد، دون أن أغفر له خطأ تافهاً يحدث ألف مرة بين الأصدقاء كل يوم، لم أتسامح معه، فشاركت في ضياعه!

قلت له:

- «اقطع عرقاً وسيّح دماً».. تحدّث معها بوضوح، واعرف رأسك من رجليك.. مستقبلك أهم من نادية.

عادت المياه إلى مجاريها، ولم يكن يمر يوم دون أن نتقابل، ونقص وقائع وحكايات قديمة حدثت في سنوات البعد الثلاث.. ثم تزوجت «نادية» من قريب لها في يوم أسود على «صبري»، فدعوته إلى حفل لـ«نجاة الصغيرة»..

وتغيّر «صبري»، لم يعد ذلك الوهج الفكري والروح الوثابة والطموح الفائق..

هل يمكن للزمن أن يرجع، هل فعلاً آلة الزمن لها وجود؟ لو كنت بجانبه في أزمته لتغيرت أشياء كثيرة، كنت صديقه الوحيد، ولو احتضنته ما وصل إلى هذه النهاية، التسامح ليس ضعفاً بل هو كل النبل، التواضع ليس ضعفاً بل هو كل النبل، الحب ليس ضعفاً بل هو كل الحياة، وليسقط «العقاد» و«نيتشه» و«شوبنهاور»!

(١٣)
لما تزوّجت «نادية» نمنا على الأسفلت

كنا معروفين بين أصدقائنا وشباب حتتنا بـ«شلة الأساتذة»: محمد صبري، وسيد عبد النبي، وأنا، مولعون بالقراءة والكتابة، نقضم أيامنا بتمرد تغذيه مهانة هزيمة يونيو ١٩٦٧، لا يعجبنا شيء ولا يرضينا شيء، نكاد نُدين كل ما نراه حولنا، أفلام حسن الإمام قبل أن ندرك قيمتها، كتابات أنيس منصور عن العفاريت وتحضير الأرواح، والذين هبطوا من السماء، عبث السينما وتفاهتها، بينما جنودنا يشربون من عرقهم المالح تحت لهيب الشمس على الجبهة، ظهور المطرب أحمد عدوية وأغنيته العجيبة «السح الدح امبو»، توهان الناس وهي تمشي في الشوارع مثقلة القلب مهمومة البال دون أن تنزع عن روحها أطواق الخضوع والسلبية، وتمزق قيود «الرضا بالواقع والمقسوم»، كنا نشبه «دون كيشوت» بمثاليته وسذاجته، لم يكن ينقصنا إلا حصانه وسيفه الخشبي، نشهره في وجه تلك الطواحين نقاتلها، ونخلّص عالمنا من شرورها!

وكنا أيضاً نقضم أيامنا بحب، ونقف على ناصية شارعنا نتحاور بالساعات بصوت عال عن صلادة العقاد، وموسيقى اللغة عند طه حسين، وأسلوب فولتير في التحريض على الثورة، وفضائح جورج صاند، وقيم توماس مور و... و... أو نمضي إلى كورنيش النيل نتحدث في حكايات شارعنا وأحلامنا وما نصبو إليه، ونخاطب النهر الذي نعشقه وظهورنا إلى أرض أغاخان،

أرض فراغ تنمو فيها الحشائش البرية قبل أن تتحول إلى هذه الأبراج الخرسانية العشوائية القبيحة التي تحجب النيل ونسماته الطرية في الصيف عن سكان المنطقة.

كان محمد صبري أكثرنا تمرداً وأحلاماً وعشقاً للحياة، ولد وحيد مات أبوه قبل أن يولد وعاش في كنف جده، وأم في غاية الطيبة والعذوبة، كرّست حياتها وهي في عز شبابها لتربية الولد وبنتين أكبر منه بسنوات بعد رحيل رجلها، قبل أن يبلغ الثلاثين.

وكان «صبري» طيباً عطوفاً لا يعرف الخبث إلى قلبه سبيلاً، وثائراً طول الوقت، يحلم أن يقود انقلاباً، ويقتحم القصر الجمهوري على ماسورة دبابة، ويستولي على السلطة، ويصرخ فينا قائلاً:

– وسوف أؤدبكم يا كلاب.

فأردّ عليه مستهزئاً:

– من فضلك غطِّ نفسك وأنت نائم!

وفجأة ينقلب الحديث عن الحب، وكنا عشاقاً بالطبع لبنات من الجيران، إلا سيد عبد النبي لم أسمع منه طول صداقتنا الممتدة عمراً كاملاً أي كلمة حب أو عبارة فيها لهفة أو شوق أو حنين أو سهر بالليل يعدّ النجوم، حتى بعد أن تزوج وأنجب أولاده، وإن كنا لا نتقابل إلا قليلاً، وباعدت بينا الأيام بالسنوات، خاصة بعد هجرته المؤقتة للعمل في دولة الإمارات في أواخر الثمانينيات.

لكن «صبري» كان شاعراً يتدفق إحساساً وعشقاً بالبنت التي تسكن في شارع خلف بيته بمائة متر، ولا يكف عن الحديث عنها، واصفاً عينيها الخضراوين ولحظها المشرق ونظرتها الملتهبة التي يمكن أن تذيب الدنيا بما فيها، وشعرها الكستنائي الذي يتدلل ويتدلى خلف ظهرها في كبرياء، وعودها الممشوق ولا عود راقصة باليه في أوبرا فيينا، فأسخر منه:

– حاسب حاسب يا عمّ الشاعر.. أنت فاكرها برجيت باردو ولا هند رستم.. خيالك واسع جداً ونظرك ضعيف، وأنصحك تعمل نظارة «قعر كوباية»!

كانت «نادية» جميلة بحق.. تعي مقدار جمالها، ولهفة المشتاقين خلفها، يعشقها صاحبي عشق أبطال الروايات الرومانسية التي كنا مولعين بقراءتها، لكنها لا تعيره اهتماماً، تتمتع بكل ما يبذله من مشاغبات للتودد إليها، وهي «ولا هنا»، منتهى «التقل والبغددة».

وقلت له:

– سيبك منها..

قال:

– لا أستطيع.. أموت.. الحياة تتلاشى، الشمس تغيب والليل يدوم، والفجر لا يشرق!

قلت: كفى يا عمّ «قيس».. أحسن الدنيا تبكي وتظل تُمطر دون توقف، والبحر يثور ويغرق الكرة الأرضية.. وأنا نفسي أعيش لي يومين.

كان عبد الحليم حافظ هو ثالثنا في أي حديث عن الحب، نرى شعر الحبيبة يهفهف حين يلومه اللائمون في «بتلوموني ليه»، نحترق من الصمت ونريد أن نصرخ في الكون بمشاعرنا في «حبك نار»، نكاد نجنّ ونذرف الدمع أنهاراً حين نتصور أنها خانتنا وهو يغني «تخونوه»، نطير من الشوق والحنين، وتأخذنا اللهفة ندور حول بيتها «مشتاق لعينيك.. مشتاق لك وأنا لسه مقابلك»، نلعن الغدر والغش، وتنزف قلوبنا وحشة وغربة وفراغاً «لا لا تكذبي.. أني رأيتكما معاً»، نحلّق بأجنحة من نور ونار ومشاعر مع «كل كلمة حب حلوة قلتهالي.. كل همسة شوق بشوق سمعتهالي»!

وذات مرة جاءني «صبري» حزيناً مكتئباً متوتراً، على حال لم أعهدها من

قبل، وقال لي:

– خلاص.. «نادية» سوف تتزوج.

قلت له:

– شيء طبيعي يا صاحبي.. نحن تلامذة والمشوار طويل قدامنا، الكتابة والفن والصحافة والنجاح، كم سنة، عشرة عشرين، هي جرح وحياة ستظل معك، عش بها حلماً تبحث عنه في وجوه كل النساء اللائي ستقابلهن.

زاغت نظرات عينيه، وانطفأت لمعة كانت تضيئهما بضحكة فيها براءة الندى، ثم مال ناحيتي ووضع رأسه على كتفي..

أحسست أن العالم فعلاً قد انتهى..

خطرت في بالي فكرة، لم لا أدعوه إلى حفل لنجاة الصغيرة (هكذا كنا نسميها في تلك الأيام)، قرأت عنه إعلاناً في الجرائد، قلت:

– هيا بنا نذهب إليه الليلة.

ساعة حتى أقنعته بالحفل، و«نجاة» لها صوت جميل ساحر مليء بالحنين نهواه ونذوب فيه، وهو ينادي «بحبك حب يا خوفي منه وروحي فيه»، أين تلك المرأة التي تحبّني بهذا القدر؟!

لبسنا ما على الحبل، وأخذنا تاكسياً إلى جامعة القاهرة، وكانت قاعتها الكبرى تتوهج من آن لآخر بمثل تلك الحفلات التي تبدد كآبة القاهرة، وتعيد إليها بعض المرح البريء المنعش للروح والبدن.

قطعنا تذكرتين في البلكون، كانت التذكرة بخمسة جنيهات، وهو مبلغ أثقل من جيب أي طالب في ذاك الزمان، إذ كان مرتب خريج الجامعة ١٧ أو ٢٠ جنيهاً على ما أذكر.

وسطعت «نجاة» على المسرح في ثوب واسع هفهاف وتسريحة شعر تجعله

مثل تاج على رأسها، وغنّت ونحن نتمايل مشدوهين مبهورين بالصوت والأداء والدلال وموسيقى محمد عبد الوهاب وبليغ حمدي وكمال الطويل، كما لو أننا في معبد مقدس نتلقى وحياً وإلهاماً من كبيرة كهنته، وظللنا في هذه الحالة المشدوهة طول الحفل، فأسرفنا وقت الاستراحة بين الفقرتين في الإنفاق من فرط إحساسنا بالمتعة.

وفي الثالثة والنصف صباحاً، خرجنا من القاعة في حالة سكر معنوي، ووقفنا أمام باب جامعة القاهرة نقلب في جيوبنا عن أجرة التاكسي، فاكتشفنا أننا أنفقنا ما معنا حتى آخر مليم!

فسألني:

– ماذا نفعل يا كبير الوزراء؟

فقلت:

– أنتم هذه الليلة يا فخامتكم من عامة الشعب المعدمين، وعليكم ركوب «موتورجل ماركة مرسيدس» إلى شبرا.

فانتبه إلى المأزق:

– يا نهار أسود من الجامعة لشبرا.. سنصل بعد يومين.

قلت:

– النهار لم يطلع بعدُ..

ومضينا نتسكّع على الطريق في الرابعة صباحاً، من كوبري الجامعة إلى شارع قصر العيني إلى شارع رمسيس، وكان التعب قد أنهكنا تماماً، فاستلقينا في منتصف شارع رمسيس على الأسفلت، أمام سينما رمسيس التي كانت في قاعة تابعة لنقابة المهندسين، واختفت الآن مع أشياء جميلة كثيرة من حياتنا، ولم نخفْ من قدوم سيارات في ذلك الوقت، فالسيارات كانت شحيحة كالديمقراطية

والحرية وحقوق الإنسان، خمس دقائق على الأسفلت قبل أن ننهض ونكمل مشوارنا إلى بيوتنا في شبرا، وصوت «نجاة» كان يسري في وجداننا.

obeikan.com

(١٤)

تهديد بفضيحة

غششتُ في حياتي مرتين، وكنت في الصف الأول الثانوي، مرة تافهة مرت بسلام ولم أتوقف عندها، وكتبت فيها نظرية في الهندسة فشلت في حفظها أو أهملتها سيان، على مسطرة خشبية، ونقلت منها في امتحان الفصل الدراسي الأول، ومرة ما زالت أذكرها بدقائقها متألماً من ثقلها على صدري، كما لو أنها حدثت بالأمس القريب، كابوس لازمني فترة طويلة، لم أعاوده قط؛ لأنني لم أنسَه.

كنتُ في مدرسة شبرا الثانوية بشارع طوسون، وكانت قصراً من أملاك الأمير عمر طوسون، حفيد محمد علي باشا. صحيح أن الحكومة غيّرت اسم الشارع، ونسبته لشيخ صوفي مات قبل قرون، يجهل أغلب سكان شبرا وجوده أصلاً، فهجروه، وظلوا مع «طوسون».

كان حال المدرسة في أول العام لا يسر عدواً ولا حبيباً، تزويغ وزعيق ونطّ من فوق السور بعد الحصة الثانية، شتيمة وطول لسان، لا يوجد شيء منضبط نسبياً إلا «عزبة قليني»، و«عزبة قليني» هي فصول الصف الثاني المتناثرة في سور المدرسة الشرقي من الداخل، وكانت في الأصل إسطبل خَيل الأمير طوسون.

وكان الأستاذ «قليني» مدرس أول الكيمياء يشرف على هذه الفصول، فاكتسبت اسمه، كان «قليني» ممتلئاً ذا كرش خفيف، متوسط الطول عريض المنكبين، أشبه بمصارع سومو بعد الاعتزال، وحاول قدر استطاعته أن يسير

بعزبته عكس تيار الفوضى.

ثم جاء عبد العزيز صقر ناظراً منقولاً إلينا من شبين الكوم، فتحولت المدرسة إلى ثكنة عسكرية تمشي كساعة سويسرية فائقة الجودة.

بعد نهاية الفصل الدراسي الأول أعلنت إدارة المدرسة في طابور الصباح عن مسابقة في اللغة العربية بين طلبة المدرسة جميعاً، كتابة موضع إنشاء حر، وعلقت شروط مسابقة على باب المكتبة..

لم أهتمّ.. وأصلاً لم يلفت الإعلان انتباهي.

وذات يوم وكنت عائداً لتوي من المدرسة، و«يا دوب» خطفت قطعة خبز بجبنة رومي دون أن أخلع ملابسي، ناداني صديقي «سيد» من حوش بيتنا على غير عادته.

«سيد» في نفس عمري وسنتي الدراسية.. ويسكن على الناصية في بيت ملك من دورين مغلق على أسرته من بابه، لا يزورون أحداً ولا يزورهم أحد، الأب والأم وخمسة صبيان، «سيد» كان ترتيبه الثالث بينهم، يستحيل أن تسمع لهم صوتاً، ولم نضبط واحداً من إخوته يمشي في الشارع يبحلق في المارة أو الشبابيك أو يلعب معنا الكرة، كلهم يتحدثون مبتسمين بصوت خفيض، نلتقطه بصعوبة، وينظرون إلى الأرض دوماً لو بنت من بنات الشارع تكلمهم بالمصادفة في أمر ما.

«سيد» كان أكثر أخوته تحرراً، كان يقف معنا أحياناً على الناصية، هو ومحمد صبري وأنا، نتكلم في قصة قرأناها، مسألة صعبة في الجبر أو الهندسة، إعراب جملة معقربة في قصيدة لشاعر جاهلي، تحويل عبارة إنجليزية من الكلام المباشر إلى الكلام غير المباشر.. وأحيانا نعرض على بعضنا البعض الخواطر والحكايات التي نكتبها في كشاكيل خاصة، وكانت بعض مواهبنا في الكتابة نثراً وشعراً قد بدأت تتفتح..

ثم يمضي «سيد» عائداً إلى بيته.. بعد صلاة العشاء، ويستحيل أن يمكث معنا بعدها.

«سيد» متفوق جداً، يخصّص كل وقته للمذاكرة، خمس ساعات يومياً على الأقل، عنده قدرة فائقة على الحفظ، حين كانت تفلت منا كلمة في حديث شريف أو قصيدة من كتاب المدرسة أو وقائع أحداث قديمة في كتاب التاريخ أو معلومة جغرافية يصححها لنا بسهولة مفرطة، حصل في الابتدائية على أكثر من تسعين في المائة، وكرّرها في الشهادة الإعدادية، أيام ما كان التعليم تعليماً جاداً، والمجاميع الكبيرة نادرة ندرة الهواء المنعش في صيف أغسطس، والتحق بمدرسة التوفيقية الثانوية، التي تقبل أوائل الإعدادية فقط من كل مدارس شبرا.

خرجت جرياً إليه؛ فقد كنت أسكن في الدور الأول صائحاً:

– ماذا بك يا «أبو السيد»؟

قال:

– مدرستكم عاملة مسابقة في «التعبير»؟

سألته:

– وماذا يعني هذا؟

سألني:

– هل نويت الاشتراك فيها؟

قلت:

– لست مهتماً.

قال:

– وما المانع؟

أجبته:

– لا أريد..

فقال:

– عندي فكرة.. نشترك نحن الاثنين.

قلت:

– من فضلك يا «سيد» اطلع من نافوخي.. بلا مسابقة بلا دياولو.

قال:

– عندي حل.. أكتب أنا موضوعاً وتشترك به، ولو فزنا نقسم الجائزة بيننا.

رفضت في البداية.. ثم أقنعني بإلحاح قهري.

في الصباح كان «سيد» على باب بيتنا، في يده ملف أصفر نظيف، داخله موضوع تعبير عن «الادخار»، ما زالت أذكر بعض جمله: «القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود في خضم الحياة المتقلبة»، والإسراف آفة نكافحها بالادخار.. والقرش على القرش كالبنيان يحمي الإنسان من عواصف الزمان»... وهكذا.

أخذت الملف المكتوب عليه اسمي، وسلّمته في مكتبة المدرسة.. وبعدها نسيت الموضوع برمّته.

مرّت أربعة أسابيع، ربما خمسة، وجدت كشفاً معلقاً في المكتبة بأن موضوع «الادّخار» فاز بالمركز التاسع، من بين مائة وثلاثين متسابقاً.

وناداني الأستاذ «فضل» أمين المكتبة، وسلّمني جائزة عبارة عن مجموعة كتب: «أساطين العلم الحديث» للكاتب اللبناني فؤاد صروف، و«ساعات بين الكتب» لعباس محمود العقاد، ورواية «قصة مدينتين» لتشارلز ديكنز بإنجليزية

مبسطة، ورواية «تسعة وثلاثين خطوة « للكاتب الأسكتلندي جون بوتشان.

أخذت الكتب، زاغت عيني عليها، وطمعت فيها.. ورحت أفكّر كيف أحتفظ بها دون أن أقتسمها مع «سيد»، وكان كلما سألني عن نتيجة المسابقة، أجيب في صوت مفضوح:

– لم تظهر بعدُ.

فينظر إلى بعيون كلها شك، ويطأطئ رأسه ويغادرني وفي فمه ماء..

وذات يوم وكنت عائداً لتوّي من المدرسة، ناداني «سيد» بصوت صارخ غاضب، خرجت إليه، فقال:

– نتيجة المسابقة معلنة من ثلاثة أسابيع.. والموضوع فاز بالجائزة التاسعة.. أين هي؟

قلتُ له:

– مجموعة كتب عليها اسم مدرستي، ولا يصحّ أن أعطيها لك.

قال:

– يعني تأخذها كلها على الجاهز؟!

ثم هدّدني:

– لو ما أخذت حقي سوف أذهب إلى مدرستك وأفضحك، ومعي نسخة طبق الأصل من الموضوع.

شعرت بخجل، وجللني عار وخزي كبيران..

تركته ودخلت إلى حجرتي أخرجت الكتب الأربعة وقدّمتها إليه، نزعها من يدي بقوة، وأدار لي ظهره مبتعداً.

لم أنم ليلتها ولا بضع ليالٍ تالية، يأكلني الهوان، وتمنّيت الموت أو الذوبان في

الهواء، كيف فعلت بنفسي هذه الجريمة؟

وسألت الله لِمَ لمْ يخلقنى نبتة أو شجرة أو حشرة؟

بعد أسبوعين أو ثلاثة.. ذهبت إلى الناصية، ووقفت تحت بالكونة بيت «سيد» وناديت عليه قبيل المغرب، نزل، اعتذرت له، وعادت علاقتنا جيدة..

وأضمرتُ في نفسي شيئاً مهماً عشت عليه..

تفوقت على «سيد» في الثانوية، ودخل هو كلية الزراعة، وعمل مهندساً زراعياً في شركة «قها» بعد التخرج، ثم هاجر إلى الخليج سنوات طويلة جداً لم أره فيها، ولم أعرف عنه شيئاً.

وفجأة سمعت صوته عبر هاتف «الأهرام»، كنت نائباً لرئيس تحريرها، وتقابلنا، سلامات وأشواق ولهفة حقيقية وذكريات طفولة وصبى وشباب وأحلام، عرفت أنه تزوج وأنجب أربعة أولاد، ثم أخرج من شنطة صغيرة بضع أوراق وقال لي:

- أقرأها لو أعجبتك ربما تجد فرصة للنشر.

قلبتُ الأوراق وجدت فيها عبارات شبيهة بالتي كانت في مسابقة الإنشاء حين كنا طلاباً في الصف الأول الثانوي.

(١٥)
مدرّس بنات

قالت لي أم «عبده» بصوت خفيض:

– ممكن تساعد «عفت» في المذاكرة، وإذا نجحت لك هدية كبيرة؟

وافقت على الفور؛ لأكون بالقرب من ابنتها، التي أحمل لها مشاعر مضطربة مراهقة، وكنت وقتها في المرحلة الإعدادية.

كانت أم «عبده» تسكن في الدور العلوي من بيتنا ذي الطابقين، وهي صاحبته، زوجها مقاول بناء تزوج من غيرها، وتركها مع ثلاث بنات وصبي، وكان يزورهم من آن لآخر، كما لو كان من أقاربهم البعيدين، يحافظ على صلة الرحم.

نجحت «عفت» بمجموع أدخلها مدرسة شبرا الإعدادية بنات، فمنحتني أمها خمسة وعشرين قرشاً في ثلاثة أشهردروساً، اقتطعتها بصعوبة من لحمها الحي؛ فهي كانت أشد بخلاً من «شيلوك» الشكسبيري.

تكوّنت لي سمعة جيدة علمية وإنسانية فيما بعد، فاشتغلت مدرساً خصوصياً بعض الوقت في سنوات دراستي الجامعية، ومن المصادفات لم يكن من بين تلاميذي سوى صبي واحد هو ابن الحاج «عياش» لفترة لم تزد على ثلاثة أسابيع، والبقية كن تلميذات.

أمسكتني أمي من كتفي وهزتني بقوة:

– أنت تدخل بيوتاً كثيرة، والبيوت أسرار، إياك أن تخون الأمانة، وأثق بك.

قلت لها ضاحكاً:

– أنا تربيتك يا ست «عزيزة».

بيوت قليلة في شارعنا هي التي لم أدخلها، عرفت كل الحكايات وراء الأبواب المغلقة، ناس بسيطة حياتها بسيطة تفتش عن الستر من خرم إبرة، بشر كما خلقهم الله لهم زلات ولهم فضائل، يوسوس لهم الشيطان أحياناً، وتضغط عليهم الحياة بحيلها الخبيثة أحياناً، يمضون على درب الأيام وكأنهم يمشون على الصراط يتأرجحون عليه بين الجنة والنار، لم يطل نظري أبداً، ولم تخرج منه العيبة مطلقاً، ولم تلحق بي شائعة واحدة، كانت سيرة النبي وأفكار العقاد ونيتشه وشوبنهاور وطه حسين ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وفروسية القرون الوسطى وقيم الخير والجمال والحق علامات حارسة أشد يقظة وتنبيها وقوة من أجراس خطر تدق مع عجلات قطار قادم على مزلقان يعج بالبشر.. عثرت على جوابات غرامية بين كراسات الواجب لم ألتقطها، ولم ألتفت إليها، كأنني لم أرها، حكت لي البنات عن أشياء لا يمكن أن تحكيها لأهاليها؛ صديقاً يشاركهن في تفكيك أزمات عابرة.. لم يعرفها أحد مطلقاً.

لكن في حكايات البيوت لم أنسَ حكايتين..

«نسرين» بنت الأسطى «عبد الوهاب»، ملاحظ في السكة الحديد، جنوبي قحّ من أسوان، من عجينته الإنسانية نبتت الطيبة على كوكب الأرض، والأم فلاحة من الدلتا، ممتلئة إلى حد تجاوز قدرة قلبها على تحمّل الشحم، فاعتلّ، وتسلل إليها السكر من ثنايا الحلويات التي كانت تعشقها، فصارت شبه قعيدة في صالة شقتهم، تتحرك بصعوبة وبمساعدة ابنتيها.

«نسرين» سمراء ممتلئة إلى حد ما، تقاطيعها تميل إلى جمال هادئ لا يلفت الأنظار، ولا يستوقف الباحثين عن قصص حب ملتهبة، لكن «فوزي» ابن الجيران الحليوة شاغلها فترة، من بالكونة شقتهم في الدور الأعلى من البيت

المقابل، «فوزي» أنهى دراسته بالثانوي التجاري، كان يلهو معها، يجرّب «حلاوته» في أوقات فراغه، يخرج كل صباح إلى البلكونة يرنو بعيون قلقة إلى أول الشارع، لعل ساعي البريد يلوح إليه بخطاب التعيين المنتظر، وبالمرة يقصف «نسرين» بسهامه، فسقطت في حبه كما تسقط ثمرة جوز هند لفحتها الشمس الحارقة ألف سنة، قابلته مرة في ميدان العتبة، تجولا في وسط البلد ساعة، ثم انقطع عنها تماماً، كأنه لم يرها من قبل.. انشغل في وظيفته الجديدة بوزارة الأوقاف.

دخلت «نسرين» في دور اكتئاب حادّ، ارتبكت كل حواسها، انتابها شكّ عميق في شخصها وأنوثتها.. أهملت نفسها وكل حياتها، ورسبت في الدور الأول في ثلاث مواد..

في لحظة مكاشفة حكت لي ما حدث، قلت لها:

– مجرد تجربة وهو الخاسر.. وحياتك أهمّ منه.

ثم أشرت على أمها بطبيب نفسي في دوران شبرا، اقتنعت دون أن تعرف السبب، وانتظمت «نسرين» مع الطبيب عاماً ونصف العام، وعادت إلى طبيعتها ونالت دبلوم التجارة، وتزوجت وقالت لي قبل زفافها بأيام:

– فعلاً أنا كنت عبيطة.

قلت لها:

– لا تندمي.. كلنا كذلك حسب الظروف.

«صافي».. أو جميلة الجميلات كما كانوا يسمونها في الحي، بنت مدير عام في شركة بترول، شبه منفصل عن أمها، وتزوج من أخرى، يعيش معها في مصر الجديدة، لكنه يواظب على الحضور إليهم يومياً، وأحياناً يبيت عندهم مرة كل أسبوعين أو ثلاثة حسب الأحوال.

الأم في الأربعين من عمرها تقريباً، هي أصل جمال ابنتها «صافي»، لكنها

في حالة دروشة دينية، أذكار وبخور، وقراءة قرآن، ودروس وعظ، حفلات زار، وزيارات لا تنقطع عن بيوت أولياء الله الصالحين، ونساء في ثياب سوداء قادمات وخارجات من بيتها المِلْك يعملن أشياء لطرد العفاريت والجن والأعمال السفلية.

ربما هذه الدروشة هي سبب زواج الأب من أخرى، وربما كانت ردّ فعل عنيفاً على زواجه وإهماله لها..

«صافي» تحب «مصطفى» الطالب بكلية الزراعة، يشاغلها من شباك جانبي يطل على شباك مطبخهم، منذ كانت في الشهادة الابتدائية، فتشتت تركيزها، وتفرغت للجلوس في المطبخ بالساعات، فكانت تنجح عاماً وترسب عاماً، وحين ضاقت المسافة الدراسية بينها وبين أختها الأصغر منها بثلاثة أعوام حبسها أبوها في غرفة، ومنعها من الخروج ومن المطبخ.

قال لي الأب في أسى واضح:

– نفسي تنجح «صافي» من أول مرة وتأخذ الإعدادية هذا العام.

وعدته..

«صافي» فتاة مدهشة، هيفاء، أنيقة، بارعة الجمال، عينان خضراوان، شعر أصفر مسترسل كخيوط ذهبية حرة، مولعة بـ«مصطفى» ولعاً شديدا، أتتني فكرة لا تخيب، فقلت لها:

– لو نجحتِ.. سوف أجعل والدك يوافق على خطبة «مصطفى» لك.

لمعت عينا «صافي»، وتحمّست جداً.

«مصطفى» من عائلة على قدر الحال، أبوه عامل في بنزايون، وله أربعة من الإخوة هو أكبرهم، وهو ما لا يُرضي المدير العام حسباً ونسباً.

وقال لي:

– يهتم بتعليم إخوته الأول.

كنت أتردد عليهم ثلاثة أيام في الأسبوع، ولا مرة في الشهر الأول تركتني «صافي» دون سؤالي:

– هل فعلاً ستجعل أبي يوافق على «مصطفى»؟

أجيب صادقاً:

– نعم.. بشرط أن يأخذ بكالوريوس الزراعة هذا العام أولاً.

تردّ:

– أبلغته بذلك.

مضى الدرس على خير وجه، لكن بالتدريج لاحظت تغييراً في تصرفات «صافي»، لم تعد تسألني عن وعد أبيها، وراحت تبدى اهتماماً زائداً بي، وذات مرة قالت بطريقة موحية:

– لم أعد أفتح شباك المطبخ.

ثم لاحظت في عينيها كلاماً يكاد ينطلق من عقاله.

تغابيت.. وأدركت أنها أحاسيس مؤقتة، تشبه تعلّق مريضة بطبيبها النفسي، «صافي» في سنّ صعبة، وجدان قلق مضطرب، ومشاعر في حالة سيولة، ولا مفر من استغلال الموقف استغلالاً إنسانياً، بأن يظل الباب مواربا دون أي إيذاء أو نصف خروج على النص، ونجحت «صافي» لأول مرة من أول مرة، واحتفى بي والدها احتفاءً خاصاً، بالرغم من أنها لم تحصل على المجموع الذي يؤهلها للتعليم الثانوي العام، فألحقها بمدرسة خاصة..

وتحت تأثير اللحظة المبهجة أباحت لي «صافي» بمشاعرها النابعة من تشتت وارتباك عاطفي.

سألتها بصدق:

– و«مصطفى» الذي ينتظرك على الباب؟

فلم تردّ.

حدثني والدها عن الدرس الجديد، اعتذرت له قائلاً:

– عندي بكالوريوس هذا العام.

عرفتُ بعد سنوات بالمصادفة أن «صافي» تزوجت «مصطفى»، وطلّقت منه ومعها ولدان.

obeikan.com

(١٦)

صداقة ضائعة

خسرت صديقي «فوزي» قبل ثلاثين سنة، ولا أعرف حتى هذه اللحظة السبب أو ماذا حدث، فجأة وجدنا أنفسنا غرباء عن بعضنا بعضاً، لا نلتقي، ولا أسمع عنه، ولا يسأل أحدنا عن الآخر، كما لو أن فيروساً شرساً ضرب هذه الصداقة، فماتت بالسكتة الدماغية، أو دخلت في غيبوبة أبدية، والأعجب أنه لا يخطر على بالي إلا نادراً، مجرد ذكرى من زمن سحيق لا تثير شجناً ولا حنيناً ولا شوقاً، وحين أعود إلى شبرا أطوف بشوارعها وحاراتها وميادينها، من سانت تريزا إلى سينما دوللي، ومن منية السيرج إلى كورنيش النيل، ومن ميدان فيكتوريا إلى خلوصي، لا تقتحم صورته خيالي، بل تلاشى جزء كبير من ملامحها كما لو كانت صورة من فيلم قديم أو من لقاء مع زملاء المدرسة ونحن نلعب في الحوش وقت الفسحة، مع أننا لم نكن نتفارق ونحن صغار إلا نادراً، حين أذهب إلى السينما مع بعض صبية شارعنا، ولم يكن يهواها مثلنا، أو ألتقي مع صديقي محمد صبري هاوي الأدب والشعر والفن، نتكلم عن روايات يوسف السباعي وأشعار إبراهيم ناجي، وآخر ما قرأناه من سلسلة روايات عالمية، وفي الخواطر العاطفية التي كنا نكتبها.

و«فوزي» جاري في شبرا، يسكن في بيت مقابل بيتنا، كل سكان شارعنا تقريبا «بلديات» من محافظة المنوفية، الباجور وسرس الليان والسنطة وأشمون وبركة السبع وكفر مناوهلة وإبخاص.. وكانت عائلة «فوزي» من طوخ

طنبشا، على طريق مصر إسكندرية الزراعي، زرتها معه ذات مرة.

تصادقنا من أول يوم رجعت فيه للعيش مع أبي وأمي وإخوتي، كنت غاضباً من أبي، فقد تزوج أكثر من مرة، ويغيب عنا بالشهور كأنه فصّ ملح وذاب، فنضطر للرحيل إلى بلدة أمي نعيش هناك شهرين أو ثلاثة، حتى يملّ أبي من زوجته الجديدة، ويهلّ علينا مثل أيام العيد، يصالح أمي، ونعاود البحث من جديد عن سكن في شبرا، تكررت عملية الرحيل والعودة مرتين، وفي الثالثة رفضت وأصررت على أن أبقى مع خالتي «مَنْبِية» وجدتي «تفيدة» في كفر مناوهلة، حيث مدرستي الابتدائية، وافق أبي، لكنه طلب أن أنتقل للعيش مع جدتي في «إبخاص» في بيت عائلته من أول السنة الجديدة.

ورجعت إلى شبرا، وكنت في الصف الثالث الابتدائي، وكنا نسكن في «الحافظية»، ونزلت الشارع، فوجدت صبية يلعبون الكرة الشراب، اقتربت من أحدهم خجولاً، وسألته:

- ممكن ألعب معكم؟

نظر إليّ من فوق لتحت:

- استنى لما نعمل تقسيمة جديدة.

كان ذلك الصبي هو «فوزي»، في نفس سِنّي..

نعود من المدرسة ظهراً، نلهف لقمتين على الماشي، وننزل جرياً إلى الشارع نلعب الكرة، ودوماً كنت في فريق «فوزي»..

ثم نطلع نعمل الواجب المدرسي، ونذاكر ساعتين، ثم نتجمّع على الناصية نتسامر مع بقية أصحابنا حتى العاشرة مساء، ثم تُفرقنا نداءات أمهاتنا علينا واحداً وراء الآخر من الشبابيك والبلكونات.

جمعتنا الكرة الشراب ومنافسات الجري والمصارعة البريئة لسنوات، قبل أن تجمعنا حكايات بنات شارعنا في سن المراهقة أكثر وأكثر.. وحين كنا في

الشهادة الإعدادية لم يحصل على مجموع يؤهله للثانوي العام، فالتحق بالثانوية التجارية، وكان حلم حياته أن يكون مهندس سيارات.

كان «فوزي» «حليوة»، طول بعرض، ملامح متناسقة، عيون بنية، شعر غامق «مسبسب»، شارب خفيف يشبه شارب كلارك جيبل في فيلم «ذهب مع الريح»، وكان مشغولاً بـ«سامية» وأخواتها، لا لم يكن هو فقط، كل شبان شارعنا انشغلوا بهنّ، لكن «فوزي» له أفضلية السكنى معهم في نفس البيت، وفي نفس الدور، الباب في وش الباب، بينما نحن نلاحقهن بعيوننا في الشارع كلما خرجن، أو من الشارع كلما أطللن من الشباك أو البلكونة، وهنّ ينادين بدلال مقصود على بائع خضار أو فاكهة، أو يسألن:

– هو «محمود» بتاع الخضار عدى ولا لسه؟

و«محمود» حين ينادي: «الطماطم أحلى من التفاح، أو الكوسة تداوي قلبك يا تعبان» صاحب صوت «حياني» يمكن أن يقلق الموتى في قبورهم، ويستحيل أن «يعدي» دون أن يقف له الشارع.

فنردّ بطريقه عبد الحليم حافظ الناعمة في فيلم «حكاية حب»:

– لسه يا أفندم.

كنا جميعاً نحسد «فوزي» على النعمة التي هو فيها!!

و«سامية» لها أختان أصغر، «عايدة» و«هالة»، ويعشن في كنف أمهنّ، ولم نعرف لهم أباً، ويقال إنه مسافر في السودان، لكنه لم يعد أبداً، حتى غادرت العائلة شارعنا، وسكنت في شقة أوسع في عابدين تطل على شارع بورسعيد، رحت مع «فوزي» نزورهن مرة أو مرتين.. ثم انقطعت صلاتنا بهن، لكن «فوزي» ظلّ يحكي عن «سامية» فترة، قبل أن يخبو ذكرها، وتظهر «عايدة» في حياته، وكانت بنت الجيران أسفل شقتهم.

لكن «عايدة» كان لها أمّ طويلة اللسان حادة النظرات، حين لاحظت

انشغال ابنتها الوحيدة به، وكانت تحلم بعريس جامعي لها، شنّت عليه حرب كلام، وجرّسته بلسانها الأفعواني، وكاد «فوزي» أن يفشي سر علاقته بـ«عايدة» والرسائل الغرامية التي كتبتها له، واللقاءات بينهما كلما غابت أمها في السوق، متحججة بمسألة في المحاسبة لا تعرف حلّها..

وأمسكته ومنعته، فالرجل يمكن أن تتحمّل سمعته كلاماً مثل هذا، لكن البنت لا تستطيع، واستجاب، ولم يفتح فاه بكلمة.. وابتعد عنها حتى أغرمت هي بابن صاحب فرن بلدي لم يكمل تعليمه الابتدائي، وأرغمت أهلها على تزويجها منه.

لم تنتقص المسافة «الثقافية» بيني وبين «فوزي» من روابط المحبة التي تجمعنا، أصلاً لم ألاحظ هذه المسافة وقتها، ولم تفلح محاولات أمه في قطعها لأسباب مجهولة، وظلت صداقتنا قوية، نستيقظ من النوم، أفتح شباكي وأُصبّح عليه، أو العكس، قبل أن ينزل كل منا إلى مدرسته الثانوية.

وحين انقطعت صلتي بصديقي «صبري» لثلاث سنوات؛ بسبب اشتباك كلامي تافه، توطدت علاقتي أكثر بـ«فوزي»، وحين جنّد في القوات المسلحة بعد حصوله على دبلوم التجارة، ازددت قرباً منه، فهو صار جندياً في جيش مصر، وأخذ «فرقة مظلات» رفعت من قدره في نظري، وكان معسكره في هايكستيب، ينزل منه مرتين أسبوعياً، أحياناً كنت أصاحبه، وهو ذاهب إلى وحدته، ثم أعود وحدي.

لكن بعد خروجه من الجيش تغيرت علاقتنا تدريجياً، ولا أستطيع أن أمسك اللحظة التي حدث فيها هذا..

كنت قد أنهيت تعليمي الجامعي، وجندت ضابطاً بالجيش الثاني الميداني في منطقة أبوصوير بالإسماعيلية، ولم أكن أنزل إجازة أسبوعاً إلا كل ٢٠ يوماً.

في هذه الفترة عيّن «فوزي» موظفاً بوزارة الأوقاف، واشترى تاكسياً بالشراكة مع أخويه، واشتغل عليه في وقت فراغه.. فكنت أنزل في الإجازة،

فلا نلتقي إلا قليلاً، وأحياناً يدعو خطيبته، وأنا كذلك، ونذهب جميعاً في نزهة إلى القناطر الخيرية بالسيارة.

وفكرنا أن نؤجر شققاً متجاورة نسكن فيها حين نتزوج، ورحنا نتفرّج هنا وهناك، وأعجبته شقة في شبرا الخيمة، لكنني رفضت السكنى هناك.

وعلى ما أنهيت فترة تجنيدي كان «فوزي» قد تزوج، وانتقل إلى شبرا الخيمة، ولم نعد نرى بعضنا بعضاً إلا بالمصادفة، حين كان يزور أمه.

وفي مرة من ثلاثين سنة أو أكثر تقابلنا مصادفة في شبرا، لاحظت أن شاربه زاد كثافة، أقبلتُ عليه، سلامات وتحيات، كان بجواره ابنه في الرابعة من عمره، ثم استأذن سريعاً، ولم أره من وقتها، وانقطعت عني أخباره.

openkan.com

obeikan.com

(١٧)
أستاذ الجامعة الذي هددته بالقتل!

كنّا نسوراً محلقين في فضاء أحلام باتساع الأفق، نقف على ناصية شارعنا نرويها لبعضنا بعضاً، محمد صبري في زي ضابط جيش تشبهاً بجمال عبد الناصر، سيد عبد النبي جراح شهير كالدكتور «مدحت» الذي أحبّته «نادية» في رواية يوسف السباعي، أشرف توفيق كاتب لامع على غرار نجمه المفضّل أنيس منصور، والعبد لله كان حائراً ما بين الأدب والمحاماة والهندسة، ولا تسألوني عن السمات المشتركة الغامضة التي تربط بينها!

ولا واحد فينا هبط من الفضاء، ظلّ حلمه محلقاً، وسكن هو في أرض واقع مختلف، «صبري» أخذته قصة حب فاشلة إلى معهد تجاري، و«سيد» انحرف إلى كلية الزراعة، و«أشرف» الوديع صاحب الصوت الخفيض شقّ طريقه إلى كلية الشرطة..

وفكّر العبد لله في «البحرية»، قراءاتي للأدب أنبتت لي أجنحة رومانسية، بحّاراً يجوب العالم، وله صديقة في كل ميناء يرسو عليه، أو مثل «سيد» في فيلم «الاختيار» ليوسف شاهين، منتهى الحرية، لا أسوار ولا حدود، منتهى العشق، قصص حب أسطورية كالتي في الروايات، منتهى البساطة، يفكر في الناس ويعيش لهم وبهم.

وفعلاً ركبت القطار، وذهبت إلى الكلية البحرية بالإسكندرية، أخذت ملف الالتحاق، دون أن أسطر فيه كلمة واحدة، دموع أمي منعتني.

أمي هي سر حياتي، وهذه قصة أخرى..

قالت لي بحدة:

- كلية الطب ومجموعك «يوديك».

التحقت بكلية الطب مضطراً، وربما كارهاً، فشعر رأسي يطير من مشهد الدم، وآهات أي إنسان تُسمع في ضلوعي، وقلت لنفسي لأقنعها بـ«شربة الطب»:

- وماذا فيها؟ يوسف إدريس طبيب وأديب معاً، ولم لا؟

كانت «الإعدادي» أي سنتنا الأولى في كلية العلوم جسراً إلى كليتنا المرموقة، شراء البالطو الأبيض وعدة التشريح والدراسة باللغة الإنجليزية أذابت قدراً من نفوري، فالمباهاة حلّت محلّ الأحلام، وكنا نمسك البالطو الأبيض، مثنياً على ذراعنا، كما لو أننا نملك العالم، وكانت الخمسة «ع» هي النبراس الذي يشد خطواتنا، الأحلام التي تبدأ بحرف العين، عيادة، وعروسة، وعربية، وعزبة، وعمارة.

كان يمكن أن أتأقلم مع علم الحيوان وعلم الكيمياء وعلم النبات، لكن ظل علم الأحياء الأهم في دراسة الطب مثل «اللقمة في الزور»، لا قادر على بلعه ولا قادر على تقيؤه، لكن أزمتي الكبرى التي غيرت مسار حياتي، أو عدلته إلى الوجهة الصحيحة، كانت مع علم الحيوان وأستاذه.

كان الدكتور «توفيق» أستاذاً مساعداً، لا يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين، شاب متفوق «عايق» يحاول أن يبدو أرستقراطي النشأة، لكن تفضحه تفاصيل صغيرة تسقط منه عفواً، قادم من إنجلترا بعد حصوله على درجة الدكتوراه، بدا صارماً لا تعرف البشاشة طريقها إلى وجهه، يعاملنا بتعالٍ مصطنع، ويتأفف

من أي شيء وكل شيء، ويصفنا دوماً بالأغبياء.

تحمّلناه كما يتحمّل المدين مرابياً يقترض منه، وكانت الحياة الدراسية تمضي، إلى أن لفتت «هالة» انتباهه، ربما هي التي ألقت بصنّارتها، ربما سيارتها الأمريكية الفارهة هي التي غمزت له، ربما هو الذي يبحث عن عروس تكمل نصف دينه، وتصعد به سُلّمها الاجتماعي.

«هالة» جمال رائق كعسل النحل المصفى، الشعر أسود طويل نسبياً يتماوج كما لو كان على مهرة ترقص في عرس ريفي، العينان بنيتان غارقتان في سواد الليل، العود عود بان، كما وصفه الشاعر العربي من قديم الزمان..

ولم أنتبه إلى هذه التفاصيل إلا بعد الحادث الرهيب مع أستاذ علم الحيوان، وحين أتت إلى الجامعة ذات مرة بسيارة فارهة، تشبه سيارة عماد حمدي الأمريكية ذات الجناحين في أفلامه وشادية بجواره تغني له.

كانت الدفعة مقسمة إلى «سكاشن» أو معامل، حسب الترتيب الأبجدي للأسماء، وكان حرفا النُّون والهاء في «السيكشن» الأخير.

كان «سيكشن» الحيوان من مائة طالب، والمعمل به مائة ميكروسكوب سليم إلا واحداً، لا يصلح ويصعب ضبط انحرافاته، نتابع بها شرائح لمقاطع من جسم الحيوان، فإذا وقع الميكروسكوب المعطوب في «أرابيز» آخر طالب دخل المعمل، فعليه العوض ومنه العوض، لكن غياب بعض الطلبة كان يحل المشكلة، فيظل عاطلاً وحيداً معزولاً في دولابه.

واقتربنا من نصف التيرم، وأجرى أستاذ الحيوان امتحاناً، عبارة عن تشريح ضفدع في طبق تشريح، فتطفو أعضاؤه في الطبق بعد سكب الماء عليه، ونرسم ما نراه، وَيَا ويله من تظهر بقعة دم من الضفدع في الطبق، فهذا معناه أنه مزّق شريااناً أو وريداً!

كانت «هالة» على المقعد التالي لي مباشرة..

أنهيتُ رسمي وجاء الدكتور توفيق يتابع، ربت على كتفي بلطف، فشعرتُ بالفخر، واتجه إلى «هالة»، كان طبقها «بركة من الدماء».

وانتهى الامتحان ومرّ يوم واثنان وثلاثة، وكنت يوماً قريباً من مكتبه، وقررت أن أدخل وأسأله عن النتيجة، وقبل أن أطرق الباب، سمعت ضحكة «هالة» وصوتها.

رجعتُ ولم أدخل..

بعد عشرة أيام أعلنت النتيجة، وحصلت على ١٧ درجة من عشرين، وحصلت «هالة» على ١٨ درجة..

لم أغضب ولم أهتم، فقد علّمني أهلي أن أقبل ما أظنه حقاً لي دون مبالغة ولا أقارنه مع الآخرين، ولم يكن في ذهني أي تفوق أو ترتيب نجاح، تكفيني دراسة الطب بالإكراه.

بعدها بأسابيع حان امتحان آخر، وكان الحضور كاملاً، ودخلت كالعادة آخر طالب إلى المعمل، فكان الميكروسكوب المنحرف من نصيبي.

شرح الدكتور توفيق قطاعاً في «كلى» حيوان مرسوماً على السبورة، ووزّع المعيدون شرائح العينات علينا، لنرسم ما نراه بالميكروسكوب.

حاولت ضبط جهازي دون طائل، رفعت يدي، كان أستاذي مشهوراً بقدرته على ضبط هذا الجهاز منذ كان معيداً بالكلية، وقبل سفره إلى البعثة، ولم يفلح غيره في تقليده أو التعامل مع الميكروسكوب المنحرف.

رفعتُ يدي وضحكتُ قائلاً:

– الميكروسكوب الملعون معي.

ردّ:

– سوف آتيك وأضبطه.

دقائق مرّت ثم اتجه ناحيتي من آخر القاعة، لكن «هالة» بصوتها الموسيقي ولا نغمات من نوتة «موتسارت» نادت:

– دكتور.. دكتور..

فمال إلى الناحية الأخرى..

انتظرت ربع ساعة ربما أكثر قليلاً، ورفعت يدي مجدداً:

– يا دكتور.

فالتفت:

– حاضر، اصبر قليلاً.

صبرت نصف ساعة أخرى ثم ناديت..

فردّ:

– قلت لك اصبر، ولا تنادِ مرة ثانية..

أخرجت رواية لنجيب محفوظ من شنطتي، وكانت «الطريق»، اشتريتها حديثاً، ورحت أقرؤها بشغف شديد.

ولم أشعر إلا والأستاذ «واقف» على رأسي، يسألني بغلظة قبل نهاية الوقت بعشر دقائق:

– أين الرسم؟

قلتُ:

– لم أرسم.

فأخذ كراستي وكتب فيها بقلمه الأحمر «صفر»، اعترضتُ وقلتُ له:

– هذا ظلم، وينسف مني ربع أعمال السنة.

فردّ:

obeikan.com

– حتى تتعلم ألا تقرأ الروايات في معملي.

قلتُ له:

– أنا ناديت على حضرتك، ولكن حضرتك كنت مشغولاً!

تصوّر الدكتور أن كلمة «مشغول» نوعا من التريقة والسخرية أمام «هالة»..

فلمعت عيناه، واحمرّت أذناه وسبّني:

– أنت طالب قليل الأدب.

اعترضتُ بشدة في حدود الأدب، فإذ به يقول:

– طول ما أنا في الكلية لن تنجح في «الحيوان».

حاولت أن ألجم نفسي فلم أنجح، قلتُ بهدوء شديد:

– لن تقدر طالما أستحقّ النجاح، وأريد أن أقول لك شيئاً، من يسرق من عمري يوماً واحداً وليس عاماً أسرق عمره كله، ومستعد يا دكتور لو تسبّبت في رسوبي أن أذهب إلى أقرب قسم شرطة أكتب تعهداً، لو وقع لك حادث في أي مكان في العالم، فأنا المسئول عنه.

فردّ منفعلاً:

– أنت سافل ومن بيئة «واطية»!

بنفس الهدوء:

– كل إناء بما فيه ينضح.

تجمّع الطلبة حولي وحوله، كما لو أننا في خناقة بلدي، مع أن المسألة كانت مبارزة بالكلمات فقط..

أحِلْت إلى لجنة تحقيق، رويت كل ما حدث.. وصدر قرار بحرماني من امتحان نهاية العام في مادة «الحيوان»، وكان عندنا ملاحق للتعويض، ولكنني غادرت كلية الطب دون رجعة.

(١٨)
حكاية منسية

صعدتْ مدرج كلية العلوم قفزاً، وجلستْ بجواري وهي تلهث لهث مهرة انتهت لتوّها من سباقات قفز حواجز صعبة، هدأت أنفاسها، ضربت ذراعي بخفة قائلة:

– قليل من الذوق يُصلح المعدة.

نظرتُ إليها مندهشاً..

ابتسمت وهي تقول:

– فتاة شيك قاعدة جنبك.. أنفاسها مقطوعة.. اعطف عليها بمنديل ورق.

كانت علبة مناديل أمامي، فالرشح الخفيف هلّ مبكراً مع أول الشتاء، دفعت العلبة ناحيتها دون أن أنظر إليها.

قالت:

– يا ساتر.. هو غصب عنك؟

كانت تلك من المرات النادرة التي أحضر فيها محاضرة في «علم الأحياء»، علم ثقيل على قلبي وعقلي، كله رسومات، وأنا ضعيف في الرسم، كم حلمت أن أجيد الرسم، لكن ما باليد حيلة..

ولم أكن رأيتها من قبل..

openkan.com

لكزتني مرة ثانية، وقدّمت يدها وعيناها تلمع بشقاوة بنت عفريتة:

– ميرفت أسعد.

سألتها ساخراً:

– أسعد ممن؟، ومن أين جاءتك كل هذه السعادة؟

قالت وهي تشير بأصبعها السبابة في وجهي:

– لن تتحمل تريقتي.. اعتذر فوراً وسوف أسامحك.

تعارفنا بعد المحاضرة.. وظللنا نتكلم كلاماً فارغاً حتى افترقنا.

نمت جذور صداقة بيننا، مودّة رائقة لم نسأل أبداً عن ماهيتها أو نحاول وصفها.. أو نعِد صياغتها.

«ميرفت» فتاة جميلة، عينان سوداوان على عود سامق، شعر أسود لا قصير ولا طويل، تسريحتها بسيطة ومكياجها على «الريحة»، خلطة من أهالي الريف والحضر، هي من طنطا، وطنطا قلب الدلتا، نصفها مدينة في السلوكيات والمعمار، ونصفها ريف في العادات والأزياء، وجاءت «ميرفت» من طنطا لتلتحق بكلية الطب.

«ميرفت» عجينة من الشيطنة وخفة الدم وحلاوة الروح، يستحيل أن تضبطها مكشرة أو عابسة أو شاردة الذهن، حتى ملابسها ألوانها مبهجة فاتحة دوماً، محتشمة، الجونلة تحت الركبة على جورب نايلون.

نلتقي يومياً في المدرّج أو في الكافتيريا أو في حدائق جامعة القاهرة، نتحدّث بالساعات دون ملل، في أشياء عادية، ذكريات قديمة، أحداث في بيوتنا أو في الكلية، علاقات مع أصدقاء، مواقف حياتية، أفراح وخصامات..

أحياناً أوصلها إلى محطة مصر لتأخذ قطار السابعة إلى طنطا، وأكمل طريقي إلى بيتنا في شبرا.

لم أتحدث مع «صبري» صديق عمري عنها أبداً.. حكاية مطوية مخفية، لا تعرف سبباً لكونها كذلك، ولا تفكر في البحث عنه.. حكاية تعيشها مثل لحظات خاصة تمضيها في رحلة تظل عالقة بوجدانك ولا تأتي بسيرتها قط على لسانك.

ذات يوم قالت لي:

- تعالَ نُثبت أن الأرض كروية!

لم تسمع جوابي ولم تردّ على دهشتي، وأخذت حقيبتها، واتجهت إلى بوابة الجامعة.

وكانت تلك أول مرة نخرج معاً خارج الأسوار، تجوّلنا في حديقة الأورمان، كان مسرح الجيب يقدّم عرضاً مسرحياً وقتها، ويحتل جزءاً من الحديقة الغنّاء الرائعة، تفرّجنا على أفيشات العرض، أظنه كان: «مار صاد» للمؤلف الألماني المعروف بيتر فايس، تحدثنا مع بعض عمال المسرح، وعُدنا أدراجنا إلى الجامعة.

وفي مرة أخرى قالت لي:

- تعالَ نثبت أن وسط البلد كروية!

خرجنا من باب الجامعة، واتجهنا إلى الكورنيش، ركبنا الأتوبيس النهري، صفحة النيل بساط زاهٍ، تتمايل أمواجه في دلال، يشقّها الأتوبيس بقوة، ويفسد هدوءها ودلالها، فتنحسر مبتعدة مزمجرة يعلوها الزبد، نزلنا في مرسى ماسبيرو، كانت ثمّة لمة كبيرة أمام مبنى التليفزيون وصخب وصفافير، رأينا الفنان فؤاد المهندس محاطاً بجماهير عاشقة، انفلت منها بصعوبة، ودخل إلى المبنى السحري.

دخلنا سينما راديو، وجلسنا في جروبي قبل أن تفسده أموال النفط، وتنحدر بمستواه، تفرجنا على محالّ شارع الشواربي حين كان مركزاً شائعاً للملابس المهربة القادمة من بيروت وأثينا..

تعبنا من المشي، وزهقنا من الكلام، كان الليل قد أرخى أسداله، أوصلتها إلى محطة مصر، وأكملت طريقي إلى بيتنا في شبرا.

ولم أرها بعدها لشهرين أو ثلاثة..

في اليوم التالي كان عندي سيكشن في علم «الحيوان»، حدثت الأزمة مع أستاذ المادة، ودار بيننا الحوار الصاخب الذي هددته فيه بالقتل إذا عمل على رسوبي بالإكراه..

سمع عميد الكلية روايتي، ثم أحالني إلى مجلس تأديب، لم أمتثل للقرار، وعزمت على ترك كلية الطب بلا عودة، والانتقال إلى كلية التجارة.

قلت لأمي الغاضبة:

– أربع سنوات خفيفة تمضى سريعاً، ولن أعمل لا بالطب ولا بالتجارة.. الشهادة مجرد جواز مرور إلى عالم الصحافة.

لم أذهب بعدها إلى الجامعة، فالتحولات بين الكليات توقفت منذ بضعة أسابيع، وامتحانات التيرم الأول على الأبواب، ولن أتمكن من التحويل إلا في الصيف..

وجدت نفسي خالي شغل، ستة أشهر في إجازة مفتوحة، لم يكن فراغاً، قضيتها بين القراءة والسينما والمسرح وقاعات الفنون والمتاحف وحفلات الموسيقى والمكتبات والصعلكة في وسط البلد، ورحالة في العتبة والقلعة والحسين والدرب الأحمر والسيدة زينب وأحياء القاهرة القديمة، وخفت أن أقترب من الباطنية، عاصمة تجارة «الصنف» بالقاهرة.

وتراجعت «ميرفت» إلى زوايا بعيدة.. وكيف لها بالوجود وعقلي ووجداني ونفسي مشغولة بمستقبل غامض؟

كنا ظهراً في نهاية مايو، وسط ميدان باب الحديد، حين سمعت اسمي على هيئة صراخ، التفتّ، وجدتُ «ميرفت» في شباك أتوبيس رقم ٩، رمسيس–

الجيزة.

– حاسب يا أسطى.. حاسب يا أسطى.

كان الأتوبيس تحرّك فعلاً من المحطة، وأخذ طريقه إلى وسط الميدان متجهاً إلى شارع الجلاء.. من شدة الصراخ وقف الأسطى، وشقّت «ميرفت» طريقها بين كتل البشر المتراصة، ونزلت بصعوبة..

سألتني:

– أين أنت؟

قلت:

– طلقت الكلية بالثلاثة.

ردّت ضاحكة:

– شكلك طلقتني أنا بالثلاثة.. من غير نفقة ولا مؤخر!

رويتُ لها ما حدث..

قالت:

– سمعت طراطيش كلام.. ولم أفهم منه شيئاً.

– وماذا عنك؟

– عندي امتحان في «النبات» بعد ساعتين.

– طيب الحقي الأتوبيس التالي.

أجابت بإصرار:

– لا.. نسيب «النبات» للملحق.. تعالَ نقعد سوياً.

حاولت إثناءها بكل الطرق وفشلت..

– حتى لو ذهبت لن أجيب جيداً.. حالي اختلف وتركيزي راح.

ومشينا معاً لساعات، أثبتنا أن نصف القاهرة على الأقل كروية! تحدثنا وقلنا نكاتاً وضحكنا، وجلسنا على المقاهي، وتغدّينا في مطعم بالحسين، تفرجنا على أفيشات كل الأفلام المعروضة في سينمات وسط البلد..

قالت:

– حان موعد العودة إلى طنطا في قطار السابعة.

ركبت معها القطار نكمل حديثنا في أشياء شخصية وعامة وعادية، ونروي حكايات عن ناس نعرفهم، وناس نسمع عنهم..

نزلنا في محطة طنطا، سلّمنا على بعضنا بحرارة، مشيت هي، وركبت أنا قطاراً قادماً من الإسكندرية، عدتُ إلى القاهرة في الثانية عشرة ليلاً.

ومن يومها لم أر «ميرفت» مرة ثانية.. كأنها عابر سبيل في طريق عام.

obeikan.com

(١٩)
موعد في الفجر

سألتني بقلق بالغ:

– متى ستسافر؟

أجبتها هادئاً:

– في السادسة صباحاً أكون على محطة العباسية العسكرية.

قالت:

– سوف أصحبك إلى المحطة.

سألتها بدهشة:

– ماذا ستقولين لهم في البيت، وأنت تغادرين مبكرا جداً قبل موعد الكلية بساعتين على الأقل؟

ردّت بثقة:

– سأتصرف.

ساعتها كنت واقفاً أمام شباكهم، البيت على ناصية الشارع، تسكن وعائلتها في شقة الدور الأول، كان أمراً عادياً أن تطل من الشباك، ونتحادث معاً، فنحن جيران منذ أكثر من عشر سنوات، وذات يوم نادت عليَّ أمها، وكنت عائداً من المدرسة الثانوي:

obeikan.com

– «كريمة» في أولى إعدادي عندها ملحق في الإنجليزي، ممكن تساعدها.

تعرفت عليها، فتاة خجول للغاية، تتحدث وهي تنظر إلى الأرض، عينان عسليتان غامقتان، شعر أسود ملموم ذيل حصان، عود مفرود غير ممتلئ.

أيامها كنت مشغولاً بـ»عفت»؛ «عفت» من عمري، تسكن في نفس بيتنا التي تملكه أمها، كنا نذاكر معاً، ونحن في الشهادة الابتدائية..نجحتُ أنا ورسبتْ هي.

مرّت شهور طويلة.. دخلت فيها الجامعة، وكلمتني أم «كريمة» عن درس جديد لابنتها..

كانت علاقتي بـ»عفت» شبه مقطوعة، لم تحبّها أمي لأسباب لم تبُحْ بها أبداً لي، وكنت أضحك معها قائلاً:

– تكرهين زوجة المستقبل من الآن؟ المُر في انتظارها منك يا ست «عزيزة»!

فترفع يدها نحوي هاشة:

– لما تتخرج الأول يا فالح.

في أول صيف بعد دخولي الجامعة، غادرتُ القاهرة كالعادة إلى قريتنا، أعيش مع أصدقاء الطفولة، وخالتي «مَنْبِية» وستي «تفيدة» و»وحيد» ابن خالتي شهوراً ثلاثة ساحرة خالية من أي منغّصات، النوم في الظهرية تحت التوتة، تسلق شجرة الجميز العملاقة، لعب الكرة في حوش المدرسة في العصرية، السهر على الزراعية مع الصحبة نَشْوي الذرة ونشرب الشاي على «المَنْقَد»، أو الجلوس على شط بحر شبين بين حكايات الحب الساذجة الوليدة، ثم الاستلقاء على سطح الدار محدقاً في النجوم حتى يغشاني النوم..

وحين رجعت، وجدت الجو مكهرباً، «عفت» تشيح بوجهها عني، تجاهلتني حين رأتني، انتظرتها على باب البيت، فخرجت تدبّ الأرض مثل عسكري مطافئ يلاحق حريقاً.

قالت أمي:

– اشتبكنا معاً بسبب خناقة بين أخيك «جمال» وأخيها.

«جمال» يصغرني بخمس سنوات، وكان يلعب مع أخيها الكرة، ثم تعاركا مثل كل الصبية في شارعنا.

تدخلت «عفت» ودفعت أمي بيدها، وتلاسنت معها بالكلام.

أمي قدس أقداسي.. من يدخل إليه دون وضوء لا يُقبل كلامه فما بالك بمن تلاسن معه مهما كان؟

قاطعتها حتى بالنظر، وهي تمضي أمامي في الشارع، أو واقفة في البلكونة وقت العصاري.

لا سلام ولا كلام ثلاث سنوات كاملة.. وانزلقت «عفت» إلى قاع ذاكرتي، حتى إنني نسيت أمرها تماماً، ولم يعد بيننا اتصال، فلم تعرف بانتقالي من كلية الطب إلى التجارة.. وركنت أوراق الريحان التي كانت تسقطها عليّ في مكان ما.

وراح قلبي يدقّ مع الدرس الجديد، ويتفتح بمشاعر أكثر نضجاً ووعياً، أسرتني «كريمة» بشخصيتها القوية، بالرغم من كساء الخجل الذي تتوارى خلفه، وبنعومة مشاعرها المنطلقة على سجيتها، بالرغم من العناد الذي يركبها أحياناً ولا يلين.

قلتُ لها:

– سوف أسمع نصيحة يوسف إدريس، وأتزوجك بمجرد التخرّج.

وكان «إدريس» كتب مقالاً في الأهرام عن أهمية زواج الكاتب في سنّ مبكرة.

ضحكتْ ولم تردّ..

لكن فجأة عادت «عفت» للظهور من خلف أبواب الذكريات البعيدة المغلقة..

كنت ماشياً في الشارع، حين شعرت بأصابع تدقّ على ظهري بخوف، وصوت نسائي ضعيف:

– لو سمحت.

التفتُّ لأجد فتاة لا أعرفها..

قالت:

– أنا «سميحة» زميلة «عفت» في المعهد، وهي عاوزة تتكلم معك، هل أنت على وعدك القديم؟ لأن فيه خطيب تقدّم لها.

ارتبكتُ بشدة.. تعطّل عقلي.. لم تسعفني أي كلمات..

لماذا الآن؟ وماذا جرى بعد كل هذه السنوات؟

طالت دهشتي دهراً..

قالت بسرعة أنقذتني من شلل تفكيري:

– ننتظرك يوم الخميس القادم في المعهد الساعة خمسة بعد الظهر.

يا الله.. ما هذه الورطة؟

وعد الحر دين عليه، والرجل كلمة..

هرعتُ إلى صديقي محمد صبري، حدّق في الفراغ.. هزّ رأسه ساخراً في محاولة لتخفيف توتري:

– ولا أزمة الشرق الأوسط يا ابني!

في الموعد قطعت المسافة إلى المعهد التجاري الفني بشبرا سيراً على الأقدام، لم يكن في ذهني شيء محدد، والمشي قاتل للتوتر.

قلتُ في سري: دعِ الأقدار ترسم الطريق.

استقبلتني مبتسمة، ابتسمتُ، بيننا عيش وملح وذكريات صبا، لكن التفاصيل الصغيرة اختفت في أركان سحيقة منسية، نعم إحسان عبد القدوس كان محقاً في روايته «الوسادة الخالية»، القلب خالٍ من الرجفة والشوق، في أي جب عميق انزوت خفقاته لها؟ كانت «كريمة» في مخيلتي، نظرة عينيها تصاحبني لحظة بلحظة، فلم أقل لـ«عفت» شيئاً له معنى.. عبارات مقتضبة تبدو طيبة مُستكشفة، كنت مثل رحال معتزل عاد إلى رحلاته في غابات قديمة، نسي كل ممراتها الآمنة ويحاول جس مخاطرها.

بعد اللقاء وجدتُ نفسي أدندن بكلمات فاض بها وجداني..

«يا خطوتي.. لا بتهربي ولا بتقربي، لسه حاسة باللي كان، لما انجرحت انتِ كمان، وتيجي هنا تدوري على خطوة جنبك تسندك، تتعبي وترجعي ماشية وحدك سكتك».

ثلاثة أسابيع صعبة.. مثل ساحر يمشي على سلك رفيع معلق بين السماء والأرض، ربما شعرت «كريمة» بتوتري وانشغالي، لكنها لم تفاتحني أبداً.

هذه مواقف لا يحلّها إلا القدر، وهو صاحب تصاريف عجيبة..

كنت جالساً على مكتبي أذاكر، الامتحانات على الأبواب، حين سمعت زعيقاً وهيصة وسباباً، خرجت مسرعاً، لقيت أخي «جمال» مشتبكا مع أخيها، وأصدقاء مشتركون يفصلون بينهما، و«عفت» نازلة من شقتهم تسبّ وتشتم بألفاظ قبيحة، وضعتُ يدي بقوة على فمها، دفعتُها بعنف بعيداً، وأمسكت أخي بحزم، وأدخلته عندنا، تواصل السباب لثوان، ثم تلاشى وتلاشت معه «عفت» تماماً، مثل سحابة شاردة بدّدتها رياح قوية.

وأقبلتُ على «كريمة» منفتحاً ومنشرحاً، ربما فسّرت لها، ربما لم أفعل، لا تفرق معها.

نجحتُ في بكالوريوس التجارة، وكانت هي ما زالت تدرس في كلية التربية..

قلت لها:

– التجنيد سوف يحدد خطوتنا التالية..

قرأتُ اسمي على اللوحة بعد كشوفات طبية طويلة وصعبة:

– كلية الضباط الاحتياط.

– أين هذه الكلية؟!

– في وادي الجنّ بالصحراء الغربية.. غرب مدينة إسنا بعشرين كيلومتراً.

كانت الكلية قد انتقلت من مدينة فايد إلى الصعيد الجواني أيام حرب الاستنزاف مع العدو «الإسرائيلي»، فالمدينة باتت جزءاً من أرض العمليات اليومية، غارات طيران وضربات مدفعية.. وظلت هناك سنوات بعد انتصار أكتوبر.

قال صف ضابط بحزم مبالغ فيه:

– موعدنا ١٠ ديسمبر، الساعة ٦ صباحاً، يأخذكم القطار الحربي إلى إسنا.

قلت لها:

– لن أنزل إجازة قبل شهرين على الأقل.

أخذتها الخضة وقالت بإصرار:

– سأصحبك إلى محطة العباسية.

على ناصية شارع القضاعي مع شارع شبرا جاءت في فستان منقوش، أسود في أصفر، تحت الركبة بعشرة سنتيمترات، لم تكن نساء مصر وفتياتها قد تلحّفت بالسواد، أمسكتُ يدها، وركبنا تاكسياً، سألتها:

– ماذا قلتِ لهم في البيت؟

قالت:

– لا يهم.. المهم أنك لا تسافر دون أن أودّعك على المحطة.

كانت القاهرة شبه خالية، والقاهرة وهي خالية مثل الجنة الموعودة.

وقفنا على باب المحطة نصف ساعة ربما أكثر، فالكلام أخذنا إلى عوالم منسوجة بأحلام ذهبية حتى نادوا علينا، دخلت المحطة، وأنا ألوّح لها بيدي.

وحلّ عيد ميلادها، وأنا في وادي الجنّ، فأرسلت لها أول خطاب في حياتي، ما زالت تحتفظ به حتى الآن.

obeikan.com

obeikan.com

(٢٠)
أشغال شاقّة لذيذة

كنت في قيلولة حين صرخت أمي وهي تهزني بشدة:

- الحرب قامت!

قفزتُ من فراشي مضطرباً مشتت الذهن، أدخلت نفسي في ملابسي، وانطلقت إلى الشارع، أحدق في ملامح البشر وأعمدة النور وأسفلت الطريق وأسماء الحوانيت وطلاء البيوت وأسوار البلكونات وعربات الترام، وفاترينات الملابس، كل شيء كان مختلفاً منتشياً كوردة تتفتح لأول مرة في الكون..

مال عليَّ مصري بسيط وسألني في لهفة:

- هل عبرنا قناة السويس فعلاً؟

قلتُ وراديو ترانزستور على أذني:

- الموجات الأولى من جيشنا عبرت.

سأل بقلق ممزوج بأمل:

- ممكن نكسب الحرب؟!

قلت له بثقة:

- لو مرت ٢٤ ساعة، وثبّتنا أقدامنا في الضفة الشرقية.

كنت وقتها طالباً جامعياً، وقرأتُ بضعة كتب عسكرية عن معارك الحرب

obeikan.com

العالمية الثانية، وخاصة النزول على شواطئ نورماندي؛ لتحرير أوروبا من القوات النازية، ومنها أدركت خطورة ساعات العبور الأولى في تحديد مصير الحرب كلها.

وتوالت البيانات العسكرية، كل بيان معزوفة من القتال تشقّ فجراً لامعاً أمام المصريين، وتطيل قاماتهم إلى عنان السماء؛ لتمسك أيديهم قرص الشمس وتلوح به للدنيا كلها.

أيام عظيمة لم تتكشف لنا أسرارها، وما صنعناه من معجزة عسكرية إلا بعد الحرب، وما قرأناه من كتب أجنبية واعترافات جنرالات كبار ودراسات من معاهد عسكرية عالمية.

مجرّد قراءات تصنع صوراً، إلى أن قابلت الواقع وجهاً ولوجه بعد عامين من الحرب، حين جُندت ضابطاً احتياطياً، ولمست بيدي كيف صنعت قواتنا المسلحة المستحيل في حرب أكتوبر ١٩٧٣.

لا أذكر الأيام الأولى التي ذهبت فيها إلى إدارة التجنيد والكشف الطبي، لكن ذاكرتي تنشط من على رصيف قطار في العباسية، وقفنا عليه طلبة كلية الضباط الاحتياط منذ السادسة صباحاً، كل منا يحمل «مخلته»، ثقيلة بعهدة اللباس العسكري، متجهين إلى إسنا بمحافظة قنا.

ستّ أو سبع ساعات قبل أن يصل القطار العسكري، ولم يتحرك إلا قبل غروب الشمس بنصف ساعة تقريباً، ثمانية عشر ساعة أخرى من الإرهاق والملل والبرد، لم يكن برداً عادياً، كنا في شهر ديسمبر، وحين ارتاح القطار في المنيا بعد منتصف الليل حتى لا يعطل السكة أمام قطارات الصعيد المسافرة ذهاباً وإياباً على خط مفرد حتى أسوان، اكتشف بَعضُنَا أن قدميه تجمدتا تماماً، ولا يقدر على تحريكهما، فألقينا ببعض الماء المغلي داخل أحذيتنا العسكرية، اشتريناه كـ«شاي» من بائع بالقطار..

وصلنا إلى وادي الجن عصراً، كنا في حالة من التعب والإرهاق حوّلتنا إلى

بشر آليين بدائيين، كأننا شخصيات في فيلم بالتصوير البطيء، ولم تفلح أوامر صف الضباط في بث أي نشاط في أجساد نفدت قدرتها على التحمّل، نمنا بعمق واستيقظنا على البروجي الزاعق قبل شروق الشمس، في طابور صباح كانت التعليمات صارمة وقاطعة، ممنوع المشي مطلقاً، كل حركة عدْو، النوم في التاسعة مساء، والجري مسافة سبعة كيلومترات في نهاية الأسبوع، المحاضرات والتدريبات لا تقبل أي أعذار ولا تكاسل، المياه شحيحة، وعلينا أن نحافظ عليها، والاستحمام بالماء بالبارد (في عز طوبة)، خذوا حذركم من العقارب التي تتكاثر بالوادي، كنا أحياناً نهرسها بأقدامنا، ونحن ذاهبون إلى تبة ضرب النار.

خمسة وخمسون يوماً مرّت في لمح البصر، لم يكن لدينا وقت لنفكر أو نسترجع أو نتأمل، ماكينات يعاد تفكيكها وتركيبها لتلائم الحياة العسكرية الشاقة، ما بين تدريبات بدنية وأسلحة ومحاضرات نظرية وخدمة ليلية.

وحين عدنا إلى أهلنا لم نكن نفس الأشخاص الذين غادروهم، كنا أكثر صحة ولياقة وهدوءاً وإحساساً بالمسئولية..

وعدنا إلى وادي الجن لنقضي مدة مماثلة، قبل أن نُوزّع على معاهد الأسلحة التي سننضم إليها ونتخرج فيها، وكان نصيبي سلاح المدرعات.. السلاح الذي خاض أشرس وأضخم معارك دبابات عرفتها ميادين القتال في القرن العشرين، وخدمت في منطقة صحراوية غرب مدينة فايد مباشرة، وعلى الحدود الشمالية لما عُرف وقتها بـ«الثغرة»، كنت أقود فصيلة من الدبابات تي ٥٥ السوفيتية، دبابة قوية شديدة المراس، من إنتاج ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكنت كل يوم أراقب من بعيد دبابة «إسرائيلية» مدمرة، أمريكية الصنع من طراز أم ٦٠، متناثر أجزاء منها على الرمال تشي بما حدث لطاقمها الذي من المستحيل أن يخرج منها حياً.

كنت أحياناً أتجوّل قرب منطقة الثغرة أحصي بقايا عدد الدبابات

«الإسرائيلية» التي دمّرناها وما أكثرها، وحين زاد فضولي زرت وحدة عسكرية كانت دبابة إم ٦٠ أسيرة تقف مقهورة على تبة في مدخلها، وركبت الدبابة، أقول لكم إن الفارق بين دباباتي وتلك الدبابة شاسع، كالفارق بين سيارة لادا وسيارة شيفروليه، راحة ورفاهية وإمكانات أكبر في النيران والرؤية الليلية والسرعة القصوى، فرحت أسأل قادتي الذين خاضوا غمار حرب تحرير سيناء:

– كيف تغلبتم عليها؟

فكانوا يروون لي أفعالاً وحيلاً لا تخطر على بال الجانّ، اصطادوا بها هذه الوحوش المدرعة..

وكان الرائد أحمد الجمل قائد سريتي واحداً من هؤلاء الرواة، ولم أصادف مصرياً يعشق وطنه ويخلص له مثل أحمد الجمل، الذي لخّصت لي شخصيته تفاصيل مصر عبر تاريخها الطويل..

تسلّمني حين ذهبت إلى كتيبتي موزعاً من قيادة الجيش الثاني الميداني، وجه صارم، قوام رشيق، خطوات منتظمة، ديدبان يسعى على البسيطة، لا يبتسم، كنا في ملجأ تحت الأرض بعمق ثلاثة أمتار تقريباً، مقسم إلى جزأين؛ الأول حجرة مستطيلة ثلاثة أمتار في أربعة للضباط تتجاور فيها ثلاثة أسرّة تجعل الحركة بحساب، والثاني حجرة صغيرة في نهايته لا تزيد على ستة أمتار مربعة تقريباً لأحمد الجمل، «يا» دوب سرير فردي وكومدوينو وترابيزة صغيرة للغاية.

صحيح كانت الحرب قد توقفت لكن شبح اندلاعها مجدداً في أي لحظة كان هائماً في الأجواء..

بعد أول عشاء في «ميز» الضباط، ذهبتُ إلى الملجأ، دخل بعدي أحمد الجمل، جلس على السرير المقابل وقال لي:

– كل أسبوع عندك امتحان نظري بالتتابع في الميكانيكا والرماية والتكتيك، أكثر من ٩٠٪ لك يوم زيادة في الإجازة الشهرية، أقل من ٧٠٪ عندك مشكلة

معي، وسوف أخرج معك في تدريب الفصيلة في أول شهر، ثم تعتمد على نفسك في تنفيذ البرنامج التدريبي، خلّي بالك سوف تتعرض لاختبارات نفسية قاسية من صف الضباط القدامى والجنود، فبعضهم معرفته كبيرة، وعندهم خبرات قتالية، يا تخرج منها واقفاً على قدميك أو تصير مضغة على ألسنتهم.

كان عطوفاً مع جنوده، وفي غاية الصرامة أيضاً، لا يقسو ولا يتسامح في خطأ، كان يرى نفسه مسئولاً مسئولية مباشرة عن أمن وطنه وحمايته.

لم يتهاون يوماً، لم يجاملني أسبوعاً، وكلما حصلت على التسعين في المائة يروي لي بعضاً من ذكريات حرب أكتوبر ومعركة الدبابات الكبرى في القطاع الأوسط..

لكن الأيام طبعها الغدر والخبث، وحدثت أزمة ناعمة بيننا سببها صف ضابط في فصيلتي تعرّض لموقف قاسٍ مع الرائد أحمد الجمل، ووجدته «طالب مكتب» يتظلم لي من قائد سريتي، ما هذا يا ربي؟ وماذا أفعل؟ كيف أخرج من هذا المأزق الرهيب؟ حاولت أن أجد مخرجاً مع ضابط الصف بكل ودّ، وتحدثت مع الرائد أحمد الجمل لعله بكل خبراته أن يحل الموقف الصعب، لكن الأزمة تفاقمت وتصاعدت، وبات عليَّ أن أحيل صف الضابط «مكتب» إلى أحمد الجمل متظلماً منه، ليحيله بدروه إلى قائد الكتيبة، ورفض أحمد الجمل هذا الحل، وأغفل الأمر تماماً، فتباعدنا إنسانياً، وانحصرت علاقتنا في الجزء الرسمي فقط، ولم نعد نتبادل الأحاديث الودية عن الحياة والحب والنساء.. والنساء هي أهم حكايات رجال يعيشون في عزلة.

تألمت في صمت، كنت بين نارين؛ نار العرفان والامتنان والحب للرائد أحمد الجمل الذي علّمني فصرت ضابط رماية الكتيبة، ونار الواجب نحو «شاويش فصيلتي» الذي استنجد بي، ولزم عليّ إنصافه.

وعثرت على الحل الصعب، طلبت نقلي من السرية، وخسرت أحمد الجمل بسبب موقفي، ولم أخسر محبتي له مطلقاً.. فقد عشت معه ما يقرب من عامين أشغال شاقة لذيذة.

obeikan.com

(٢١)
مال سائب جداً

جاءك الموت يا تارك الصلاة..

ماذا يحدث لي؟ إحساس طاغٍ بأن أنفاسي تضيق، كما لو كنت أسبح في قاع بحر عميق، أجدّف بيدي وأقدامي وأرفع رأسي محاولاً النفاذ إلى الهواء..

غسلت وجهي ببطء، وارتديت ملابسي بتخاذل، سألتني أمي:

– ما بك؟

قلت هامساً:

– لا شيء.

رمقتني بطرف عينيها:

– هل هذا شكل واحد ذاهب إلى شغله في أول يوم عمل؟

ابتسمتُ على مضض، وقبّلت جبينها قائلاً:

– العمل عمل ربنا.

كنت محاسباً في حسابات الحكومة بوزارة المالية، والوزارة تتبعها وحدة محاسبية في كل إدارة مالية بالوزارات والهيئات والمؤسسات الرسمية التي تنفق من جيب الدولة، تحديداً من مخصص مالي مرصود في كل باب من الموازنة العامة، وأرسلتني الوزارة إلى وحدتها بالسكك الحديدية.

قال لي الأستاذ شفيق فهمي المراقب العام لحسابات الهيئة، بعد استقبال تقليدي لموظف جديد:

– الهيئة لها ثلاث إدارات كبرى، وإدارة الأشغال من نصيبك، وهي إدارة مهمة مسئولة عن تنفيذ المشروعات من مدّ سكك حديد وتجديد مزلقانات وبناء جسور، وتغيير فلنكات، وعايزة عيون مفتوحة.

خرجتُ من عنده أجر أقدامي من مكتبه الواقع في الدور الثاني من محطة مصر، إدارة الأشغال على ناصية في ميدان رمسيس، في مواجهة المحطة، لاحقتني صورة موظف الحكومة كما قرأتها في روايات نجيب محفوظ، وشاهدتها في أفلام السينما، تُخرج لي لسانها مستهزئة، موظف جالس على مكتب متر × متر، بحجرة يتزاحم فيها الموظفون تزاحم ركاب أتوبيس عام وقت الظهيرة، وملفات بالكوم ملقاة بإهمال أمامه، يدير جانبه لها، وراح يقرأ صفحة الحوادث في جريدة قديمة نسيها مواطن جاء يسأل عن أمر لم يلتفت إليه، وقال:

– «فوت علينا بكرة يا سيد»!

يا الله.. كيف أفعل ذلك بنفسي؟ هل دُهست أحلام الأدب والكتابة في الصحف تحت أقدام الواقع الثقيلة؟

استقبلني الأستاذ أحمد خاطر مدير عام الشئون المالية بإدارة حسابات الأشغال باهتمام واضح، موظف أنيق للغاية، يرتدي بذلة على أحدث طراز، يدخّن سجائر أجنبية، وقال لي:

– بإذن الله ترتاح معنا، ومكتبك سيكون في حجرتي.

محاسب حسابات الحكومة له وضع خاص في أي إدارة مالية يراقب عملها قبل الصرف، لا يمكن أن يخرج مليم دون موافقته وتوقيعه، فهو عين الحكومة على الالتزام بموازنة الدولة في كل بنودها.

جلستُ على مكتب جيد، بجوار شباك يطل على محطة مصر، المبنى عتيق،

من الطرازات القديمة، الأسقف عالية جداً، والشبابيك مستطيلة، تأكل نصف الحائط، جو الحر بالحجرة محتمل بالرغم من لهيب الصيف الحارق خارج المبني.

كنا في صيف ١٩٧٨، أنهيت خدمتي العسكرية قبل أيام، وكانت القوة العاملة قد عيّنتني في وزارة المالية بعد تجنيدي ضابطاً احتياطياً بعام، لم أكن راضياً عن الوظيفة، وقبلتها وقتها طمعاً في مرتب الحكومة، ٢٨ جنيهاً في الشهر، علاوة على مرتبي من الجيش، فكان دخلي يتجاوز تسعين جنيهاً، وهو مبلغ هائل وقتها، منه خطبت واشتريت ٤٠ جراماً من الذهب «شبْكة»، واشتركتُ في جمعية قبضتها بضع مئات من الجنيهات.

جلست على المكتب في اليوم الأول، لا شغلة ولا مشغلة، مجرد تعارف على موظفي إدارة الحسابات، وكان بالي مشتتاً، لم أحفظ اسم أي موظف غير مدير الشئون المالية الذي أقاسمه حجرته، كنت أحاول فكّ طلاسم لغز كبير: كيف أعيش بـ ٢٨ جنيهاً في الشهر بعد خروجي من الجيش؟

قال لي أحمد خاطر:

– في أيام كثيرة نقعد ساعات إضافية، وسوف تضطر أن تصاحبنا.

قلت:

– لست موظفاً في الهيئة، وفي اليوم التالي يمكن أن أراجع ما قمتم به.

قال:

– الهيئة سوف تصرف لك مكافأة شهرية، تقريباً عشرة جنيهات شهرية.

سألت نفسي:

– هل هي رشوة مقنّعة؟ من العيب أن يتقاضى المراقب «أي أموال» من الجهة التي يراقبها.

قال لي مديري العام:

– كلنا نفعل ذلك.

وافقت متربصاً..

ورحت أبدّد وقتي في شهور التعلم الأولى بمراجعة أعمال سنوات سابقة، صادفت مشروعات معلقة مثل البيت الوقف، بعضها من ست أو سبع أو عشر سنوات، لا هي تمّت ولا هي تحت التشغيل، مجرد ملف مهمل لا تدرجه الهيئة أو الحكومة في الموازنة العامة.. فتحوّل ما نفذ فيها من أعمال إلى فريسة بين أسنان الزمن، يقرض فيها على مهل كفأر نصف جائع.

كان العمل الفعلي لا يستغرق سوى ساعتين أو ثلاث على الأكثر، وفي بقية الوقت أفتّش في الدفاتر القديمة، خطابات ضمان انتهت صلاحيتها، مستخلصات مقاولين لم تنتهِ أعمالهم بالكفاءة المطلوبة.. متأخرات لم تُسدّد لبطء الإجراءات.

ووقعت في أزمتين عنيفتين مع كبار مهندسي إدارة الأشغال..

وصلني مستند مالي لمشروع تجديد خط سكك حديدية في منطقة بالصعيد، تحديداً بين بني سويف والمنيا، كان مكافآت للعاملين في المشروع، كجزء من تكاليفه، ومفترض أن تصرف هذه المكافآت حسب نسبة التنفيذ، فإذا بالمستند يضم ما يقرب من نصف المكافأة المقررة للمشروع كله..

قبل التوقيع على أذن الصرف طلبت تقريراً عن معدل التنفيذ الواقعي.. فكان الردّ عجيباً، لم يمضِ سوى عشرة أيام على التنفيذ، وكلها عمليات تشوين للأدوات والمعدات، تجهيز الموقع للعمل.. ترتيبات التشغيل.. إلخ.

وكانت أرقام المكافآت في غاية الظلم والجور، عالية جداً للمهندسين الكبار والموظفين الذين يعملون في مكاتبهم: من سكرتارية وسعاة، وفي غاية الضآلة لعمال الدريسة الذين تطلع عيونهم من محاجرها عملاً في عز الحر.

فأشرت على المستند:

- لا يجوز الصرف إلا بقدر الإنجاز الفعلي على أرض الواقع.

هاجت الدنيا وماجت، ورنّ تليفون المكتب، وصدم أذني صوت غاضب منفعل صاحبه وكيل وزارة في الهيئة:

– كيف توقف الصرف يا أستاذ؟ لا نريد تعطيلاً ومهاترات، لو فيه حاجة صعبة عليك كلّم مديرك؟

سألته بهدوء:

– من حضرتك؟ أكيد النمرة غلط، أنا لست موظفاً في السكة الحديد، ولم أفهم منك شيئاً؛ بسبب صوتك العالي.

أغلق الخط بسرعة..

دقائق واستدعاني الأستاذ «شفيق» مديري والمراقب العام، وسألني:

– لماذا يا أستاذ تعطّل صرف المكافآت، ولها مربوط في الموازنة؟

فأجبتُ بهدوء:

– لأن التنفيذ في الواقع أقلّ من قيمة المكافآت المرصودة في الكشف؟

قال بصوت فيه نبرة تهديد خفية:

– ليس هذا شغلنا، نحن علينا التأكد فقط بأن بند الصرف موجود في الموازنة.

قلتُ بإصرار:

– أي صرف له شروط استحقاق غير الربط في الموازنة، ولم تتوافر في المستند.

نطقت كلماتي بطريقة فيها نوع من التحدّي المكشوف، ما الذي يمكن أن يخسره موظف مستبيع يعمل بنصف «نفس»، ربّاه الأدب والفن على قيم الحق والجمال والخير؟

صرفني المدير العام..

وذات مرة كنت أراجع مكافآت عمال الاستراحات عن الأعمال الإضافية، الهيئة لها استراحات في مختلف المحافظات، ينام فيها المهندسون والموظفون الكبار، وهم في مهام عمل خارجية، فوجدت شيئاً غريباً، أن كل أصحاب المهام يأتون بخطابات من الاستراحات بأنهم لم يذهبوا إلى الاستراحة، ولم يستخدموها وعاشوا فترة المهمة على حسابهم، فيتقاضون بدل السفر كاملاً، بينما لا يخلو شهر من مستند مكافآت لعمال هذه الاستراحات والمسئولين عنها، تحت بند أعمال إضافية من شدة الإشغالات بها..

هذا هو المستحيل بعينه.. كيف نصرف بدلات نوم وطعام للمهندسين والمفتشين أياماً لا تقلّ في الغالب عن خمسة أيام ترتفع أحياناً إلى عشرة، بزعم أنهم لم يلجأوا إلى الاستراحات مطلقاً، وتركوها شاغرة، ونصرف في الوقت نفسه بدل ساعات عمل إضافية لعمال الاستراحات يُفترض أنها مشغولة طول الوقت؟

فابتكرت نظام تعارض مصالح يربط بين خطابات عدم استخدام الاستراحات وساعات العمل الإضافية بها، فإذا أحضر مهندس خطاباً من الاستراحة بعدم استخدام المكان، فلا ينال عمالها أي مكافآت إضافية.. فامتنع عمال الاستراحات عن منح هذه الخطابات للمهندسين والموظفين؛ حتى لا يسقط حقهم في المكافأة.

قامت الدنيا ولم تقعد.. خاصة من كبار المهندسين.

وبعدها بأيام اقترب مني الأستاذ أحمد خاطر، وكنا صرنا شبه أصدقاء، وقال:

- ولا يهمك.. أوقفوا العشرة جنيهات بدل ساعات العمل الإضافية لك.

قلت له ضاحكاً:

- فعل غير ضروري.. أنا قدّمت استقالة لوزارة المالية!

(٢٢)
الرسالة الساحرة

سألتني أمي:

– تبدو حزيناً.. ماذا بك؟

جلست بجوارها، وأرحت رأسي على كتفها:

– وظيفة الحكومة خنقتني؟

أزاحتني بحنوّ، وتملّت في عيني، ثم قالت:

– أنت سبت الطب بمزاجك وحوّلت للتجارة، يعني هذا اختيارك فمن أين جاءتك الخنقة؟

قلت:

– لا الطب ولا التجارة.. كله مجرد شهادة جامعية والسلام، لكن حلمي هناك قابع في شارع القصر العيني.

دفعتني عنها:

– لا تتخلّ عن حلمك.. لكن الأول قم على شغلك، بلا دلع فاسد.

خرجت من بيتنا، لم أركب الترام كعادتي، من محطة جامع الخازندار قبل دوران شبرا إلى رمسيس، أخذتها سيرًا على أقدامي، أين السبيل إلى بلاطك يا صاحبة الجلالة؟ أي درب يقود إليك؟ كيف أخطو نحوك وأقتحم بابك عنوة، فلا أعرف من يفتحه لي؟

obeikan.com

جلست على مكتبي في إدارة الأشغال بهيئة السكك الحديدية، شارد الذهن، أعمال روتينية سخيفة، مستندات مالية عليها خاتم الربط بأنها مطابقة مع موازنة الدولة.. أُراجعها بملل، وأوقّع عليها بملل، عقارب ساعة الحائط أمامي لا تتحرك، ربما تتحرك، لكن الوقت سحابة ثقيلة ثابتة.

رفعت سماعة التليفون طلبت مديري، استأذنت ساعتين مبكراً، خرجت إلى شوارع وسط البلد على غير هدى، مررت على الأمريكيين نظرت إليه لم يعجبني شكله، وبدا لي زبائنه خلف الزجاج كائنات ثرثارة سوف تفسد خلوتي، دخلت شارع قصر النيل، وقفت أمام تمثال مصطفى كامل، قرأت عبارته الشهيرة عشراً أو عشرين مرة؛ كما أفعل في كل مرة أزور الميدان: «لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً»، لم تعجبني العبارة التي كنت مولعاً بها صغيراً، ورأيتها لغواً بلا معنى، فالهندي لو لم يكن هندياً لودّ أن يكون هندياً، وهذه عبارة يمكن أن يقولها أي إنسان عن وطنه..

ساعتان.. ثلاث ساعات، تعبت أقدامي من المشى، كنت قريباً من ميدان التحرير، قفزت في أتوبيس ١٣٤ عائداً إلى شبرا، قررت أن أكتب خطاباً إلى الأستاذ مرسى الشافعي رئيس مجلس إدارة «روزاليوسف»، أسأله كيف الدخول إلى بلاط المجلة العريقة التي أعشقها منذ كنت طالباً في الثانوي، هل يمكن أن أكتب في المجلة التي كتب فيها محمد التابعي، ومحمد حسنين هيكل، ومصطفى أمين، وإحسان عبد القدوس، وعباس العقاد، ومصطفى محمود، وأحمد بهاء الدين، وصلاح حافظ، وفتحي غانم، وإسماعيل الحبروك، ويوسف إدريس، ورسم فيها «عبد السميع»، و«صاروخان»، و«رخا»، و«رجائي ونيس»، و«حجازي»، و«الليثي»، و«صلاح جاهين»... هل تقع معجزات في زمننا؟

كتبت رسالة طويلة من ثلاث صفحات فلوسكاب، أروي فيها حلماً وأمنية، وأصف حالة عاشق متيم بصاحبة الجلالة المحجوبة خلف أسوار

عالية، ولا يجد منفذاً إليها..

وألقيت الخطاب في صندوق البوستة، ومرّ يوم وعشرة ونسيت أمره: هل يُعقل أن يردّ رئيس مجلس إدارة على قارئ عاشق مجهول؟

وانتبهت إلى إعلانات وظائف خالية في جريدة الأهرام، أقرأها كل يوم بحثاً وتمحيصاً، فإذا كان قدري أن أعمل محاسباً، وأدع صاحبة الجلالة في حالها، فالناس مقامات، فليكن بمقابل مُجزٍ ومرتب في العلالي، يعني هو موت وخراب ديار؟ ماذا تفعل مرتبات الحكومة لشاب مُقبل على الحياة والزواج؟

لكن لم أتوقف عن كتابة القصص القصيرة وقراءتها على أصدقائي المقربين..

وعثرت على ضالتي، إعلان لافت للنظر، قرية الأطفال بالقاهرة أس.أو.أس تريد رئيساً للشئون المالية والإدارية ومحاسباً، وتشترط إجادة اللغة الإنجليزية في عمل الحسابات اليومية، وكشوف الإيرادات والمصروفات والميزانية السنوية والتقارير المالية.. وتوكلت على الله وتقدّمت.

نجحت في امتحان أجراه مكتب محاسبة تعاقدت معه قرية الأطفال، وانتقلت إلى المقابلة الشخصية، وكانت الدكتورة نعمت هاشم أستاذة طب الأطفال بجامعة عين شمس ترأس لجنة المقابلات، بصفتها نائبة السيدة جيهان السادات حرم رئيس الجمهورية رئيسة جمعية قرى الأطفال، ومعها الدكتور محمود محفوظ وزير الصحة في حرب ١٩٧٣، وكان أميناً للصندوق، والدكتور سيد عويس عالم الاجتماع المصري الشهير عضو مجلس الإدارة، والأستاذ محمد عزمي صالح مدير القرية، وكان منتدباً من وزارة الشئون الاجتماعية.

دارت مناقشات ساخنة داخل اللجنة، بعضها عن شئون عامة، بعضها عن شئون خاصة، وبعضها عن علم الاجتماع والطفولة، فالقرية تعمل فيها أمهات غير متزوجات متفرغات لتربية أطفال أيتام، كلهن أرامل ومطلقات وآنسات فاتهن قطار الزواج، ويتعهدن في عقد العمل بعدم الارتباط رسمياً برجل، يعني عالم أغلبه من النساء والأطفال..

ومرّ أسبوعان وجاءني خطاب تعييني رئيساً للشئون المالية والإدارية بمرتب مائة جنيه في الشهر ترتفع إلى ١٢٠ جنيهاً بعد فترة الاختبار ثلاثة أشهر، أي أربعة أضعاف مرتبي في وزارة المالية، بالرغم من معارضة مدير القرية الذي كان يفضّل رجلاً عجوزاً متزوجاً لديه أولاد، وأكثر خبرة بالحياة، وليس شاباً في السابعة والعشرين من عمره، وسط عالم من النساء.

وافقت دون تردد، وأحسست بأنها وظيفة مختلفة في عالم مختلف..

وبينما أجهّز أوراقي، ولم أكن قد تقدمت بعدُ باستقالتي إلى وزارة المالية، عدتُ من عملي لأجد في انتظاري رسالة ذات غلاف أبيض أعلاه في الجهة اليمني عبارة مطبوعة باللونين الأحمر والأسود: «مكتب رئيس مجلس إدارة روزاليوسف»..

أمسكتُ الخطاب، قلّبته مائة مرة، خرجت إلى الشارع وعدت، لا أعرف لماذا خرجت وكيف عدت، هل أفتح الخطاب فوراً؟، هل أستمتع بوجوده معي دون فتحه فربما يكون اعتذاراً رقيقاً، ذهبت إلى بيت خطيبتي محلقاً في الفضاء، أريتها الخطاب، وقلبي يرقص طرباً، وخرجت دون أن أقول لها كلمة ذات معنى..

بعد ساعات فتحت الخطاب بعناية جواهرجي يفكّ فصاً من الألماظ عن خاتم ملكي له تاريخ، كان الخطاب قصيراً، من بضع كلمات قليلة: «قرأت رسالتك، أعجبني أسلوبك في الكتابة، أنتظرك في مكتبي في أي وقت. توقيع: مرسي الشافعي».

علاقتي بـ«روزاليوسف» قديمة، أكاد أعرف عنها كل شيء، من ذكريات رواها كُتابها الكبار، في كتب ومقالات، حكاياتهم الرائعة مع الست فاطمة اليوسف والأستاذ إحسان عبد القدوس، سهرهم في المكاتب وأروقة المجلة لأوقات متأخرة، علاقاتهم الخاصة المتفردة بعضهم ببعض.

وكنت قد قرأت رائعة عبد الله الطوخي «النهر»، عمل فريد لا مثيل له

عن رحلة كاتب ورسام عبقري هو «حجازي» على ظهر مركب شراعي من القاهرة جنوباً إلى الصعيد، نسج فيها الكاتب والرسام شخَوصاً وملامح حية لحياة النهر الخفية من بشر ومخاوف، نشروها مسلسلاً في الجميلة «صباح الخير».

وبدأها «عبد الله» منذ طقّت الفكرة في دماغه وهو في مبنى «روزاليوسف»، وأفضى بها للفنان «حجازي»، وكيف تحولت إلى عمل فني بديع في مؤسسة النوافذ المفتوحة.

قلت في نفسي:

– الذهاب بعد السادسة مساء يوم خميس سيكون مناسباً، أكيد يسهرون، فالمجلة تصدر مساء السبت.

كنا شتاءً..

نزلت من الأتوبيس في ميدان التحرير، وأخذت طريقي سيرًا إلى المبنى ٨٩ شارع القصر العيني، اقتربتُ من المبنى ودقات قلبي أعلى من كلاكسات السيارات في الشارع، رسمتُ عشرات السيناريوهات لحواري مع الأستاذ مرسي الشافعي.

دخلت من الباب الزجاجي، أقدّم رجلاً وأؤخر رِجْلاً، سألتُ موظف الاستعلامات:

– الأستاذ مرسي الشافعي من فضلك؟

سألني:

– معك موعد؟

أظهرتُ له الخطاب..

قال:

– الأستاذ «مرسي» يغادر مكتبه في الثالثة كل يوم، ولا يعود في المساء.

هبط على رأسي جردل ماء مثلج، وجرجرت قدمي بصعوبة خارجاً.

عدت في اليوم التالي بعد صلاة الجمعة، طلب موظف الاستعلامات مكتب الأستاذ «مرسي»، ردّت سكرتيرته، وكانت ابنة الفنان حسن البارودي.

أشار الموظف للأسانسير قائلاً:

– الدور السادس.

فضّلت الصعود الصعب على السلالم، ألمس بيدي جدران المعبد من أول درج إلى الدور السادس، دخلتُ مكتب السكرتيرة، قالت لي أميرة البارودي بلطف:

– انتظر قليلاً.. عنده ضيوف.

دقائق لم تطل فتح الباب، وأطل منه مرسي الشافعي بوجه ممتلئ بشوش، ومدّ يده نحوي، وقال ضاحكاً:

– أهلاً بالعاشق الحالم.

سلّمت عليه، وبعدها سحب يده، ولفّها حول كتفي، ومشى بي داخلاً إلى مكتبه، كما لو أننا أصدقاء من مليون سنة..

(٢٣)
وحكى لي «مرسي»

دخلت إلى مكتب الأستاذ مرسي الشافعي مأخوذاً بدفء مشاعره وإنسانيته، معقول فيه بشر بهذه البساطة، كيف لرئيس مجلس إدارة «روزاليوسف» أن يقابل شخصاً مجهولاً بعث إليه برسالة شجية يسأله «ثغرة» ينفذ منها إلى بلاط صاحبة الجلالة؟

لاحظ مرسي الشافعي خضّتى ودهشتي، فداعبني قائلاً:

– يا بلبل مالك واخد المسألة على أعصابك؟ أطلب لك قهوة؟

أشعل سيجارة، تمدد دخانها على هيئة عفريت خارج من قمقم، رفع سماعة التليفون، قال في لغة آمرة حازمة:

– ابعت بروفة المقال.

قال لي:

– مقالي الأسبوعي عن غباء العرب في فهم ما صنعه أنور السادات في مفاوضات السلام مع «إسرائيل».

لم أعلّق..

قال:

– حدثني عن نفسك قليلاً.

ضبطتُ نفسي على حكايات عادية، منصبّة على حلم الاقتران بصاحبة الجلالة..

ضحك من وصفي قائلاً:

– داخل على طمع في صاحبة الجلالة.

فجأة نهض من مكتبه، كأنه تذكّر شيئا، فتح الباب، تحدث مع أميرة البارودي بصوت منخفض، وعاد مقهقهاً، زادت دهشتي، قال لي:

– عاصم حنفي عمل لي مشكلة مع وزير المالية.

اكتست ملامحي بدهشة فلاح غشيم نزل لتوّه إلى باب الحديد..

عاجلني بقوله:

– صحفي ذكي وشاطر راح لوزير المالية حسب الموعد، الوزير تركه في مكتب السكرتارية ربع ساعة دون تفسير، غادر «عاصم» المكان غاضباً، الوزير عملها أزمة..

لم تنفرج ملامحي عن فهم..

قال:

– أنا مبسوط من «عاصم»، لكن أرضيت خاطر الوزير بكلمتين.

وراح مرسي الشافعي يسرد حكايته مع «روزاليوسف»، كما لو أنه يزيح حجراً ثقيلاً عن قلبه، كيف وقع قرار الرئيس «السادات» باختياره رئيساً لتحريرها ومجلس إدارتها، حكايةٌ تشبه سقوط تفاحة إسحاق نيوتن على حجره، كلاهما فتح له باباً سحرياً، هو إلى مستشارية صاحبة الجلالة وزيراً في بلاطها، و«نيوتن» إلى جاذبية الأرض مفسراً لقانونها.

تنهّد تنهيدة طويلة، تخفف فيها من أعباء ذكريات ثقيلة، ثم انفرجت أساريره:

– تخيل كل صحفيي «روزاليوسف» كانوا ضدي، لم يقبلوا بوجودي، ودخل عليّ عادل حمودة ثائراً، وجلس على مكتبي.. صحفي موهوب وسكرتير التحرير، فلم أقل له شيئاً.. والله كنت آخر راحة وأنا مدير تحرير «المصور».

ساعتان، ربما أكثر قليلاً.. يبوح بكل ما يخطر على باله، ديون «روزاليوسف» للبنوك، مخاوفه من سيطرة اليسار على المجلة، خطّته في تفكيك سطوة الجيل القديم، كان في حالة طفولة بريئة رائقة، فلزمت مقعدي لم أنبس ببنت شفة، مأخوذاً بما يقول..

فجأة قام من على مكتبه، وجاء ناحيتي، مدّ يده قائلاً:

– منتظرك يوم الجمعة القادم في نفس الموعد، ومعك مقال مكتوب.

خرجتُ من المكتب نزولاً على السلالم، رأيتُ شارع قصر العيني مختلفاً، دُرت حول نفسي مثل راقص باليه، مشيت بغير انتظام مثل سكير شارب طينة، هل أصدّق ما حدث؟ هل هو حدث أصلاً؟! سهوتُ عن محطة الأتوبيس في ميدان التحرير، وعبرته إلى كورنيش النيل، تحوم أسراب من الطيور المهاجرة على صفحة النهر، تنزل هابطة إلى سطحه، ثم تعاود المراوغة تحليقاً في فضاء تملكه، ترفرف بأجنحتها في حرية ممتعة.. تتسابق نحو شمس تقاوم غروبها، وقبل أن تغادر ضفة النهر إلى اليابسة تناور بجسدها الضئيل يميناً أو يساراً عائدة إلى منتصفه، وتعلو أو تمضي مع ريح خفيفة نصف باردة..

سبحانك يا مالك الملك..

جلستُ على مقعد خشبي على ضفة النهر.. أروي نفسي بالمشهد البديع، ربما أفيق من أحلامي، ربما يمضى الحلم إلى منتهاه على أرض الواقع..

نسمة هواء باردة لسعتني، تخلّصت من خمر دهشتي، وعُدْت للواقع، ما أحلى الرجوع إليه..

كان الشارع شبه خال، عربات قليلة ذات أضواء شاحبة، «فيات» أو

«بيجو»..

أخذت الأتوبيس عائداً إلى بيتي..

مرّت الأيام الستة كما يمرّ مركب شراعي من هويس على النيل، وفي اليوم السابع كنت واقفاً أمام موظف العلاقات العامة مضطرباً:

– لي موعد مع الأستاذ مرسي الشافعي.

هذه المرة صعدت في الأسانسير، استقبلني بشوشاً، أخذ مني المقال، ووضعه على مكتبه..

سألني:

– ماذا تفعل الآن؟ أنت محاسب في وزارة المالية؟

رويت له حكاية قرية الأطفال، وعبوري كل الاختبارات العملية والشخصية.. ولكنني أماطل في تسلّم العمل من أجل عيون صاحبة الجلالة.

– كم مرتبك؟

– مائة جنيه ترتفع إلى ١٢٠ بعد ثلاثة أشهر.

ردّ مندهشاً:

– يا نهار أبيض! صلاح حافظ أعظم كاتب في «روزاليوسف» مرتبه ٢٨٥ جنيهاً، بعد شغل ثلاثين سنة.. يا ابني اتكل على الله واستلم وظيفتك.. بلاها صحافة.

طأطأت رأسي في الأرض منكسراً..

سأل:

– هل تعرف كم مرتب أول تعيين في «روزا»؟

وأجاب:

– ٣٥ جنيهاً.

أسرعتُ بالردّ:

– موافق.

قال:

– عندي مشكلة وصعوبات في تعيينك.

نظرتُ إليه مستفسرًا..

قال:

– بعد قدومي خفت أن يتوقّف الصحفيون القدامى عن العمل، كانت المجلة طالعة من أزمة مظاهرات ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ بعد ارتفاع أسعار الشاي والزيت والسكر والأرز، السادات حَمَّلها مسئولية تسخين الأجواء واندلاع المظاهرات، وهي من جانبها وصفت المظاهرات بانتفاضة الخبز، لكن السادات وصمها بانتفاضة الحرامية، وشال صلاح حافظ وفتحي غانم من رئاسة التحرير، فعيّنت ٢٤ صحفياً جديداً، أي حد كان يمرّ على «روزا» كنت أعيّنه فوراً، لم تهمّني الموهبة ولا الكفاءة، المهم أن المجلة تُطبع وتنزل السوق.. ولم يمر عليهم سوى عام، وصعب جداً أن أعيّن أي أحد جديد.

سكتّ ولم أنطق، واكفهرّت ملامحي كما لو أنني في جنازة عزيز على نفسي أو في جنازة نفسي..

حاول أن يخفف عني، وقال ضاحكاً:

– عارف ماذا قال لي السادات؟

وقلّد الرئيس السادات في طريقة كلامه:

– مبسوط منك جداً يا «مرسي».. خلاص.. بقيت لا أقرأ «روزاليوسف».

ابتسمتُ غصباً عني ابتسامة مقتضبة، صعب عليه حالي، فقال:

– طيب استلم شغلك في قرية الأطفال، ونتقابل كل يوم جمعة في مكتبي، ومعك مقال جديد، ثم نرى ما يحدث.

في الجمعة التالية.. وقفت أمام موظف الاستعلامات، فقال لي:

– الأستاذ مرسي غير موجود.. راح يحجّ.

دارت رأسي، وغادرت مرتبكاً:

– هل هي حجة أم سافر فعلاً إلى الحج؟

غبتُ أسبوعين وعدتُ أقدّم رجلاً وأؤخر رجْلاً، فطلب موظف الاستعلامات سكرتيرة الأستاذ مرسي، ثم قال:

– تفضّل هو ينتظرك.

في ودّ احتضنني، وأخرج من مكتبه «طاقية» بيضاء وسبحة ملونة:

– هما لك مخصوص.

رفع سماعة التليفون، وطلب الأستاذ فتحي أمين سكرتير التحرير، ثم قال لي:

– انزل له وابدأ عملك تحت التدريب، وكما وعدتك خمسة شهور أو ستة وأعينك.. يا خسارة المائة وعشرين جنيهاً.

دارت العجلة.. نشرتُ موضوعاً واثنين وثلاثة، تعرفت على مجدي مهنا وطارق الشناوي وعصام عبد العزيز، علاقات ودودة دون صداقة.. أراقب عادل حمودة، وشفيق أحمد علي، ونجوم ساطعة غيرهما من بعيد لبعيد..

مرّت الشهور الستة، طلعت إلى مكتب الأستاذ مرسي الشافعي، أسأله تنفيذ وعده، قابلني مبتسماً، وقال لي:

– هانت يا أستاذ.

كنت أُعدّ الوقت ثانية بثانية، أتسكّع كل يوم في حجرة موظفي الشئون الإدارية، ربما يناديني موظف:

–«مبروك يا أستاذ.. صدر قرار تعيينك وهات أوراقك».

وفي يوم ذهبت إلى المجلة بعد الظهر، قالوا لي:

– الأستاذ «مرسي» مريض، ونقلوه إلى المستشفى.

سألت:

– أي مستشفى؟

دخل عمّ «عبد الراضي» كبير السعاة باكياً بحرقة:

– الأستاذ «مرسي».. البقية في حياتكم.

obeikan.com

obeikan.com

(٢٤)
بين النهدين

قال لي بلغة جافة وعيناه مصوبتان نحوي:

– العمل هنا مسألة صعبة جداً، أنت لن تتعامل إلا مع نساء في الغالب، نساء دون رجال فخذ حذرك.

نظرت إليه ولم أعلق.. اتجهت إلى مكتبي في نهاية ردهة لا يقل طولها عن عشرة أمتار، يفصلنا مكتب سكرتارية مشتركة، تديره امرأة نصف حسناء، تجاوزت الثلاثين، تتصرف وتتكلم كما لو أن قطار الزواج فاتها، ولا تأمل في اللحاق به.

كنت قد ماطلت كثيراً قبل تسلّم وظيفتي الجديدة، رئيساً للشئون المالية والإدارية بقرية الأطفال أس.أو أس، كنت على مقربة من التعيين في «روزاليوسف»، لكن رئيس مجلس إدارتها الذي وعدني بفتح بلاط صاحبة الجلالة أمامي اختاره الله، ومات فجأة، وبدا طريق الصحافة معتماً غامضاً، والسفر فيه مثل رحلة في بحر الظلمات.. كنت على استعداد للإبحار، لكن أين السفين؟

لم يكن الأستاذ عزمي صالح مدير القرية راغباً في وجودي، وحاول كثيراً أن يثني لجنة الاختيار عن قرارها، كيف لشاب في السابعة والعشرين غير متزوج أن يعمل في قرية كلها نساء وأطفال؟

استقبلني وفي نفسه شيء مني.. وظل لأكثر من ساعة يعظني عن مكارم الأخلاق وطبيعة العمل الإنسانية ومشكلاته.

نساء القرية حالات خاصة، شرط عملهن الأول ألا يكن متزوجات، مطلقات، أرامل، عوانس، ليعملن أمهات لتسعة أطفال أيتام، يعيشون في ڤيلا كأسرة عادية، والقرية مكونة من ثلاثين ڤيلا متناثرة على شكل مدرّج على هضبة «بين النهدين» في مدينة نصر، نعم هذا هو اسم الهضبة على خريطة المكان..

تتقاضى الأم مصروفاً أسبوعياً من رئيس الشئون المالية والإدارية، تدبّر بها حياة الأسرة، تذهب إلى السوق كل صباح في أتوبيس القرية مع بقية الأمهات، يشترين ما يلزمهن دون تدخل من الإدارة في نوعية المشتريات، لكن المشرفة تمر على الأطفال، وتتأكد من أنهم يأكلون بشكل جيد أطعمة تعدّها الأم على مزاجها.. كما تبتاع الأمهات كل ملابس الأطفال بمعرفتهن، وتُسلمن فواتير الشراء للإدارة..

حياة عادية مثل أي أسرة.. بما فيها من دروس خصوصية وخناقات شعبية بين الأمهات؛ بسبب اشتباكات الأطفال مع بعضهن بعضاً خلال اللعب.

والقرية لها عيادة خاصة تعمل فيها الممرضة «إيلينا»، قصيرة ونحيفة، وبها لمسة جمال خفية لا تعلن عن نفسها بسهولة؛ بسبب إهمالها في مكياجها، وربما لهذا السبب لم تتزوج بعدُ، بالرغم من مرتبها المرتفع.

ودار حضانة بها سبع مشرفات آنسات، تديرهن «ميرفت»، في الثالثة والثلاثين من عمرها، صارمة، منضبطة إلى حد القسوة المفرطة، مثل نجمة إبراهيم في فيلم أنور وجدي «ضابط وأربع بنات»، ولعبت فيه دور مدير ملجأ للبنات اليتيمات، وظيفتها العكننة على الجميع.. ففرّت منها البنات دون عودة..

ومغسلة كبرى و«سوبرماركت» تعمل فيهما ست فتيات.. تزوّج سائق أتوبيس القرية واحدة منهن، وكانت زوجته الثانية المشاكسة التي لا تكفّ عن الخناق معه، وأحياناً كانت تركب الأتوبيس صباحاً، وعلى وجهها علامات

هذه المشاكسات.

كانت فكرة القرية غريبة عن أرض مصر، نقلتها جيهان السادات عن تجربة ألمانية بدأت بعد الحرب العالمية الثانية، ورأتها السيدة جيهان السادات في إحدى زياراتها للخارج مع الرئيس أنور السادات، ونقلتها حرفياً، ونفّذ الألمان قريتين في ثلاث سنوات بالقاهرة والإسكندرية، وكانت الثالثة في الطريق بطنطا.

أعجبت السيدة «جيهان» بشكل القرى ونظام رعاية الأيتام بها، ولم تنتبه إلى الفوارق الشاسعة بين ثقافة المجتمعين المصري والألماني وتقاليدهما؛ فالنساء في ألمانيا تعشن حياتهن كما تُردن، والعلاقات مع الجنس الأخر مباحة ومتاحة ولا غضاضة فيها، أي أن شرط عدم الزواج ينسجم مع ثقافة المجتمع وطبيعة علاقاته بين المرأة والرجل، لكن شرط عدم الزواج في مصر وفرض العزوبية والوحدة على نساء ما بين الثلاثين والخامسة والأربعين أمر شاذّ.. ويستحيل ضبطه.

كانت الشهور الست الأولى هي الأصعب، مدير القرية يضع عينيه في وسط رأسه، يراقب بشدة ما يصنعه الشاب الجديد في عالم النساء، وأمهات القرية خاصة الأصغر سناً يتابعن الشاب في رواحه ومجيئه، ولا يمر يوم دون أن تختبره إحداهن بعبارة أو إشارة أو تلميحة أو غمزة، وكثر ترددهن على مبنى الإدارة بفواتير مشتريات، حتى لو كانت ببضع جنيهات يمكن أن تنتظر لآخر الشهر.

لم تنل هذه المتابعات أو الحركات أو الإيحاءات ذرة اهتمام منى، بل كانت بعيدة عن ذهني كل البعد، ولم أتوقف أيضاً أمام مشهد يومي عجيب، كلما ركبت أتوبيس القرية من ميدان رمسيس إلى مقرها في مدينة نصر، رجل وحيد في أتوبيس كله من النساء.. فانتشرت الشائعات عني بأنني رجل «مالوش» في الستات، ولم أهتمّ، كنت مهموماً بشيء وحيد وخطير، كيف أبحر في بحر الظلمات إلى صاحبة الجلالة، وأسكن في بلاطها سكناً شرعياً؟، أين نجم الشمال الذي يقود سفينتي إليها؟

حكايات النساء المثيرة دائرة مثل عجلة الزمن.. لكن أذكر منها حكايتين..

كانت «سناء» قد عُيّنت بعدي بشهر أو اثنين في مكتب الآباء، تديره عجوز مصرية من أصل أرمني، فالأطفال لهم آباء روحيون بالكفالة، كلهم أجانب، نمساويون وألمان وهولنديون وسويسريون ونرويجيون، وربما للطفل الواحد أكثر من أب كفيل، يتعرف عليه من الصور، ويدفع له مبلغاً شهرياً للمنظمة الأم، وهي تنفق منه على القرية، ويتراسل هؤلاء الآباء مع أطفالهم عبر مكتب الآباء، يترجم المكتب الرسائل ويرسلها إلى الأمهات يقرأنها عليهم، ثم يكتبون لآبائهم الروحيين ردوداً ترسل إليهم مع ترجمة لها..

تجيد «سناء» الإنجليزية والألمانية، جميلة كنجمات السينما الأمريكية، عملت مضيفة في شركة طيران بعد تخرجها من كلية الألسن، يوم في برلين، ليلة في باريس، نهار في لندن، ومساء في روما، وظيفة ممتعة مُسكرة تمد حبال الحرية والانطلاق لصاحبتها، فانكسرت في الطريق وهجرت الطيران مجروحة جرحاً غائراً في قصة حب فاشلة، ثم تحجّبت، وجاءت إلى قرية الأطفال.. وتصادقنا، وكانت كلما تحدثت عن قصة حبها أشعر بالنزيف يصاحب كلماتها، ما أقسى خسة رجل خان ثقة امرأة عشقته!

وتفنّنت «سناء» في خدمة الأطفال، وتفانت في عملها تفانياً كاملاً.. وفجأة استقالت وذهبت دون سلام أو كلام، كما لو أنها فصّ ملح وذاب.

لكن «عايدة» حكاية أكثر حدة، أم في القرية، حسناء قادمة من الإسكندرية، شهباء، في منتصف الثلاثينيات، كانت مثار أحاديث حتى بيننا، كيف لحسناء بهذا الجمال أن تهجر الدنيا راهبة في قرية الأطفال؟ كلما دخلتْ إلى مكتبي تبدو أنيقة في كامل مكياجها، تحاول أن تفتح أبواب حديث أغلقتُها بالضبة والمفتاح..

ذات يوم قالت لي:

– عرفت أنك تبحث عن شقة للزواج.

سألتها بخبث ذكوري مكشوف:

– عندك شقة؟

قالت:

– نعم.. شِرحة وعَتبتها تجيب الحظ.. وفي حدائق القبة.

قلت بنفس الخبث:

– لا أحب السكنى في شرق القاهرة.. تعوّدت العيش في شبرا.

ردّت بدلال:

– تعالَ شوفها واحكم.

أنهيت الحديث:

– ربنا يسهّل، هاتي الفواتير..

بعد بضعة أشهر دخلت القرية ذات صباح، وجدت الأستاذ «عزمي» في مكتبه مكفهر الوجه، يكاد الإجهاد يقفز من وجهه، وعيناه حمراوان من مغالبة النعاس والغضب ، وملابسه غير مهندمة خلاف عادته..

رأى في عيني نظرة استفسار ودهشة، قال:

– كنا في مصيبة طول الليل من الساعة عشرة.. الست «عايدة» أجهضت نفسها، نزفت بغزارة، نقلناها إلى العيادة في حالة خطيرة، وطلبنا الإسعاف، والإسعاف أبلغت الشرطة، والشرطة سين وجيم في محضر مفتوح.. والضابط «عايز» يسأل صديقاتها من الأمهات، اعترضت عليه لتداعيات الموقف على عيال القرية، وحدثت أزمة لم تحلّها إلا مكالمة مهمة لوزير الداخلية عن طبيعة

المكان، ورئيسة مجلس الإدارة.

ثم أضاف بأسى شديد:

- لم أنمْ ولا أريد.

وصارت «عايدة» حديث القرية لأسابيع.

obeikan.com

(٢٥)
وأنقذني «هبة عنايت»

دخلت إلى باحة واسعة بين مبان حديثة على حافة الصحراء، يملكها الكفيل، ويخزن فيها نفايات وكراكيب وأشياء كثيرة لا لزوم لها، وينام فيها عماله الهنود، كنت أبحث عن رانفير،الذي يشتغل معي فراشا في إدارة المبيعات، وتركت له مفاتيحي، وذهبت ألعب كرة قدم في ملعب قريب.

في جانب الباحة الأيمن كوخ كبير من الصفيح والخشب له باب صاج مخلع، دخلت منه، لقيت العمال الهنود جالسين في نهاية الكوخ يأكلون، وفي وسطه جالس شيخ كبير مغمض العينين في ملابس صفراء تتدلى من رقبته مجموعة من السِّبح الملونة، ذقنه طليقة بلا تهذيب، وشعره طويل هائش مثل كومة من الريش، وأمامه فحم متوهج في قلب آنية فخار مستديرة.. فتح عينيه ورفع رأسه ناحيتي، وأشار لي بالتقدم نحوه..

مدّ يده، مددت يدي لأسلم عليه، فأخذها بقوة وفردها، وحدق فيها، ثم قال بإنجليزية مكسرة منطوقة باللهجة الهندية:

– لماذا جئت؟ لا رزق لك هنا، مستقبلك هناك، سوف تمرض طويلاً.

ترك يدي وأغلق عينيه.. وغاب

كنت قد وصلت إلى السعودية قبل شهرين فقط، هروباً من حالة يأس أصابتني.. كلما تذكرتها بعد كل هذه السنين الطويلة، أهزّ رأسي وابتسم،

والحالة نفسها لها بداية غريبة..

ذات يوم تنقلت بين مكاتب المجلة ساخراً:

– أنا أنتَ، وأنت هو، وهو نَحْنُ، ونحن هم.

ضحك مجدي مهنا، وقال لي:

– خف تعوم، لو عبد العزيز خميس عرف ما تقول.. نهارك أسود.

عبد العزيز خميس، ربعة طويل القامة، يمشي بتؤدة بين أروقة المجلة في الدور الخامس من المبني المطل على شارع قصر العيني، يبدو متوجساً طول الوقت ولا يثق بأحد، وكان مدير تحرير «روزاليوسف» و«صباح الخير» معاً، وهذا حادث فريد لم يتكرر، اختاره الرئيس أنور السادات، عقب رسالة خاصة وصلته من «عبد العزيز» يستنجد به من وضع بائس يعيشه في دار أخبار اليوم، ويذكره فيها بأيام قديمة جمعتهما معا وهما شباب في قضية مقتل أمين عثمان.. فكلاهما كان متهماً.

وكتب عبد العزيز نثراً عاطفياً في «صباح الخير» بدأه بشطرة عجيبة:

– أنا أنا، وأنت أنت، ونحن نحن، وهم هم..

فطستُ على نفسي من الضحك، ولم أصدّق ما قرأت، وبشقاوة طفولية بريئة رحت على مكاتب الزملاء أسأل:

– هل فيكم من يفهم مغزى هذا الشعر الحلمنتيشي؟

ردود ساخرة عابثة مستهزئة، وسط أكواب شاي وضحكات تصعد إلى عنان السماء.

كنت ما زلت في عملي بقرية الأطفال «أس.أو أس»، وأنشر خبراً أو تحقيقاً أو حواراً كل أسبوعين أو ثلاثة، وأنتظر فرصة التعيين التي وعدني بها مرسي الشافعي، ولم تأتِ الفرصة، مات مرسي الشافعي، ولم تكن لي علاقة مع مدير

تحريره عبد العزيز خميس، كان يحضر اجتماعاتنا الأسبوعية أحياناً، ويقول كلاماً لا أفهمه ويغادر..

نزلت إلى الدور الرابع، سألت على الفنان هبة عنايت، وجدته جالساً على مكتبه، سلّمته حواراً مع وزير الري المسئول عن التكامل المصري السوداني، وكانت دار «روزاليوسف» تُصدر مع دار الأيام السودانية «الوادي» مجلة شهرية مشتركة، وكان هبة عنايت مديرها تحريرها مع شريف طمبل.

هبة عنايت كائن خاص جداً، نصف إنسان ونصف ملاك، وجه بشوش دوماً، ملامح منبسطة مريحة، صوت هادئ حنون، مقبل على الحياة وحب الناس، ألوانه مبهجة جداً في لوحاته التي كانت تحتل أغلفة «صباح الخير» أو القصص التي يرسمها..

هزّ رأسه مرحّباً، تناول الحوار، قرأ بضعة أسطر، وسألني بضعة أسئلة شخصية، تحدثنا ربع الساعة قبل أن أغادره عائداً إلى عملي في قرية الأطفال.

ضاقت مساحة النشر في «روزاليوسف» بحجج متنوعة، واظبت على النشر في الوادي شهرياً، وتمدّدت أواصر محبة دافئة مع هبة عنايت، بدأت حين اقترحت عليه الكتابة عن الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر بعد وفاته..

فسألني متشككاً:

– هل قرأتَ عن الوجودية؟ هل تعرف حياته؟ هل فعلاً تستطيع أن تكتب عنه؟

أجبته مبتسماً:

– سيكون الموضوع على مكتبك بعد ثلاثة أيام.

قرأ «هبة» ما كتبت، ونظر ناحيتي مبتهجاً وقال:

– أريد موضوعاً عن المخرج البريطاني ألفريد هيتشكوك، هو مات صباح

اليوم.

وثق فيّ هبة عنايت، وكان مثل أخ كبير حنون:

– لا تغفل عن الكتابة لـ«روزا» من أجل التعيين.

قلت له:

– عبد العزيز خميس لا يحبّني.

مرّت شهور، وعُيّن عبد العزيز خميس رئيساً لمجلس الإدارة ورئيساً لتحرير «روزا».. فانتهت فترة من التوتر والقلق والترقب والتساؤلات عن القادم الجديد دامت ستة أشهر.

وذات يوم أوقفني موظف الاستعلامات:

– أستاذ.. أنا آسف جداً، عندي تعليمات بعدم دخولك.

تسمّرت في مكاني، تسارعت دقات قلبي بجنون، لهثت، دُخت قليلاً، أحسست باقتراب الموت، دقائق ربما أكثر، ضاع الزمن أو تداخل في بعضه، أو توقف أو انتهى فعلاً، لا أدري، جرجرت قدميّ خارجاً إلى شارع قصر العيني، أين ذهب الناس؟ كيف اختفت المحلات والأتوبيسات والمباني؟ ما لزرقة السماء هذا اللون الكابي المكتوم؟ ما كل هذا الصمت الذي عمّ الكون؟

قتيل ينزف، مشيت بالغريزة، لا أرى طريقاً ولا درباً، من ينقذني؟، كيف أعود وأحيا من جديد؟ لا شمس تلمع، ولا شموع تضيء، نفق معتم طويل مهجور، ليت دموعاً تهطل، دموعي عزيزة لها كبرياء خبيث لا تسقط، فترفع عن كاهلي بعضاً من وجعي الداخلي، عقلي مشوش مرتبك تائه.

ثلاث ساعات.. ربما أربع ساعات مشيت، عبرت شوارع وميادين وكباري وحواري وأزقة، صعدت سلالم ونزلت، انحرفتُ يميناً ويساراً، وصلت إلى بيتي ليلاً، ربما بعد صلاة العشاء، فتحت زوجتي الباب، صرخت فيّ:

– ما بك؟ وجهك أسود.

لم أردّ.. دخلتُ.. ألقيتُ نفسي على السرير.. نمتُ.

فتحتُ عيني بصعوبة، نظرتُ إلى السقف، قلتُ لنفسي:

– اللهم اجعله خيراً.. كابوس فظيع.

قالت زوجتي:

– ماذا حدث لك؟ كنت راجع في حالة صعبة.

يا الله.. لم يكن كابوساً.

قلت:

– طردوني من «روزاليوسف».

تسمّرت زوجتي في مكانها، لم تعرف ما تقول وكيف تواسيني، هي تعلم كم أحب الكتابة.. وكم أحب المكان.

أربعة أيام رهيبة، لها ثقل أحجار الجرانيت على قلب عصفور وليد، رتبت أفكاري، عدتُ إلى مبنى «روزاليوسف»، اعتذر لي الموظف عن منعي من الدخول، قلت له:

– لو سمحت أنا طالع للأستاذ هبة عنايت.

طلب الأستاذ «هبة» في التليفون.. وقال:

– اتفضل.

تنفستُ الصعداء وصعدتُ..

سألني الأستاذ «هبة»:

– لماذا طردك عبد العزيز خميس وعيّن كل زملائك تحت التمرين؟

رويتُ له حكاية الشعر الحلمنتيشي، وأنا أنت وأنت هو.

صفّق ضاحكاً:

– يخرب مطنك.. عبد العزيز شالها في نفسه وردّها إليك.

سألته:

– ماذا أفعل؟

مدّ يده وضمّ يدي:

– اشتغل معي إلى أن يأذن الله لك بالعودة.

دبّت فيّ الحياة، كنت أرضاً «شراقي» انساب إليها الماء قبل أن تحترق كلياً.

عام ونصف العام أكتب شهرياً في الوادي، وأعيد صياغات بعض الموضوعات دون أن يحنّ قلب عبد العزيز خميس.. وكان رئيس تحرير الوادي أيضاً.

وفي يوم قابلت عبد العزيز خميس بالمصادفة في الأسانسير، قلت له:

– عندي موضوع عن الشباب المصري، ورؤيته للحياة والمستقبل.. يصلح لـ«روزا».

ردّ باستعلاء:

– ابعته.. أشوفه.

ونشره فعلاً بعد أسبوعين..

لكن لم ارتح لنظرته، ولا طريقته في الكلام معي..

انتظرته مرة ثانية على باب مكتبه، وسألته:

– هل هناك فرصة أمامي؟

ردّ بغلظة:

– أنت محاسب ومرتبك كبير.. و»روزاليوسف» زحمة.

سافرت إلى السعودية.. قرفاً وزهقاً، إذا كنت محاسباً، فلماذا لا أجمع فلوساً نفطية؟!

أسوأ شيء في الدنيا أن تجد نفسك في مهب ريح عاتية متقلبة، الحاضر مثل سفينة مبحرة في بحر غاضب هائج، والمستقبل غامض مستور خلف سحابات كثيفة.. أيام صعبة مؤلمة، عشتها كما لو كنت سجيناً في «أرخبيل الكولاج»، التي كتب عنها الروائي الروسي ألكسندر سولجينيتسن روايته الحائزة على جائزة نوبل في الآداب، ويروي فيها مأساة النفي في معسكرات العمل القسري في الاتحاد السوفيتي، كيف جننتُ وذهبتُ بإرادتي إلى هناك؟ لا أصلح لهجرة مؤقتة أو هجرة دائمة، هل تعيش أشجار السافانا في صقيع القطب الجنوبي؟

حاولت التأقلم، وبلعت أيامي المرة كما لو كانت دواءً ضرورياً خفّفها دوام النشر في الوادي، وفي جرائد أخرى.. مقالات وتحقيقات عن دول الخليج وحياة العمال المهاجرين إليها من دول شرق آسيا وتكوين أسعار النفط في الأسواق العالمية.

لكن الحياة مملة، والحر سخيف، والكلام تافه، والتكييف يجلب البرد صيفاً وشتاءً، فأُصبتُ بنزلة شعبية حادة لازمتني شهوراً، وما زالت ذكرياتها تطاردني حتى الآن.

obeikan.com

(٢٦)
أزمة التاء المربوطة

كأننا يوم الحشر، وقفتُ على قدم ونصف القدم داخل أتوبيس ٩ القادم من جامعة القاهرة إلى ميدان باب الحديد، أتوبيس مزدوج مكوّن من عربتين بينهما مفصل حلزوني، كالذي يفصل بين عربات القطار، الفارق أن مفصل الأتوبيس يلتوي مع التفاف عربة القيادة يميناً ويساراً.. أسندت ظهري على جدار المفصل المطاطي السميك، وأخرجت ورقة وقلماً من شنطتي، ورحت أكتب خواطر ألحّت على عقلي بشراسة..

أهتزّ مع اهتزاز الأتوبيس في سيره وتوقفه، ولا أتوقف عن الكتابة بنهم وسرعة، كنت منفصلاً انفصالاً تاماً عما يحيط بي من أصوات وأشياء وبشر، كأنني في كبسولة فضائية محلقة في فراغ لا نهائي..

هبطتُ في نهاية الخط، جلست على مقهى أسفل عمارة الأطباء بالميدان، منكباً على الأوراق، حالة هوس تلبّستنى حتى انتهيت من الكتابة لاهثاً، وأخذت طريقي إلى شبرا.

كانت هذه أول قصة قصيرة أكتبها في حياتي، لا أعرف من أين أتت أو كيف جرت، وقتها كنت مهموماً بسؤال سطا على كل حواسي وعقلي: لماذا نحن متخلفون إلى هذه الدرجة؟ كيف يكون أجدادنا أول من صنعوا حضارة شعّت على الدنيا نوراً ومعرفة، ونحن نعيش شحاذين على ما يسقط من فتات العصر الحديث، «قمة المأساة أن يكون جدك عظيماً وأنت لا شيء على الإطلاق».

كنت أحدّق في وجوه الناس في الشوارع ومحطات الأتوبيس والمساجد وعلى المقاهي وفي مدرجات الملاعب، ألا تدركون ما نحن فيه؟ ما هذه السلبية التي أنتم عليها؟

كان يغيظني إلى حد الجنون هذا التواكل والكسل والتراخي، ما سر هذه التبريرات التي يرفعها الناس في كل مأزق يقعون فيه أو مصيبة تحيط بهم أو أزمة تحل عليهم؟

- بختنا وحش.

- معلش يا زهر.

- قدر ومكتوب

- كل شيء قسمة ونصيب.

كما لو أن الله خلقنا بلا إرادة ولا عقل.. إذن كيف كلّفنا بالعمل والاختيار؟

لماذا العالم المتقدم حظه مختلف وقسمته أعدل ونصيبه أوفر وزهره «ملعلع»، وقدره واقف إلى جانبه يسانده؟

لم لا نأتي بهذا «المجهول» المخيف الذي نحمّله أسباب مصائبنا وتخلفنا وفشلنا وعوارنا، ثم نحاكمه على ما يفعله فينا وبنا؟

وكتبتُ القصة على لسان هذا المجهول، شماعة التبريرات الجاهزة، فدافع عن نفسه وكشف زيف ما يروج له الناس، فأمسك به الناس بغلظة وشنقوه، وعاد كل منهم إلى بيته مطمئناً راضياً، ولمَ لا وقد تخلص من الكاذب الذي حاول أن يوهمهم بأنهم هم المسئولون عن فشلهم وخيبتهم وقلة حيلتهم وتخلفهم وقنوعهم بالمقسوم القليل والتعايش مع الهم والتأقلم مع الحد الأدنى للحياة؟!

كنا في بداية عام دراسي جديد، وحوّلت أوراقي من كلية الطب إلى كلية التجارة..

أين أنشر هذه القصة؟

وقتها أعلنت كلية الآداب عن جمعية أدبية، يشرف عليها الدكتور «طه وادي» أستاذ الأدب الحديث، ذهبت إليه في مكتبه وأعطيته القصة، وعدتُ بعد أسبوعين إلى اجتماع الجمعية، كان الدكتور «طه» على المنصة، وبجواره الدكتور عبد المنعم تليمة، قرأتُ القصة على الملأ، سمعت كلاماً مُشجعاً ومحفزاً.

قال الدكتور «طه» مستدركاً:

– لا يجوز لكاتب أن يجهل بعض أدواته، ثمة أربعة أخطاء نحوية في القصة.. هل هناك محاسب لا يجيد التعامل مع الأرقام، أو نجار لا يفهم في الأخشاب؟

خرجت مغموماً، بالرغم من الكلام الجميل الذي سمعته عن الفكرة والصياغة وتراكيب العبارات، واتجهت من فوري إلى سُور الأزبكية اشتريت كتباً مدرسية في النحو والصرف، وكتباً متخصصة لأساتذة جامعيين، وعكفت عليها شهوراً طويلة..

أجدتُ النحو والصرف سمعاً ودرساً إلا قليلاً..

كنتُ قد كتبت تحقيقاً صحفياً في أوائل الثمانينيّات بعنوان «الجماعات الإسلامية ومأزق التطرف السياسي»، وسلمته إلى الأستاذ هبة عنايت مدير تحرير مجلة «الوادي»، وعدتُ إليه بعد يومين، فإذا به يعيد لي أوراقي قائلاً:

– راجع عليه مرة ثانية.

هزّتني عبارته من جذوري، يا نهار أسود، هل ممكن أن أخطأ في الصياغة والنحو والصرف؟

هل كان وهماً ما ظننته في نفسي؟

كوّرت الأوراق في شنطتي، وقمت منطوراً من أمامه، ولساني يلهج باعتذارات:

– أعدك يا أستاذ «هبة» بأنها لن تتكرر أبداً.

ضحك هبة عنايت:

– بسيطة.. لكن خذ بالك جيداً.

عدتُ إلى بيتي، تحفزت، أشرعتُ قلمي لأُعيد الكتابة، لم أعثر في التحقيق الصحفي المكتوب في سبع صفحات فلوسكاب على أية أخطاء لغوية أو تعبيرية، ثلاث ساعات أفتش عنها في السطور وبين السطور دون جدوى.. أين اختفت هذه الملعونة؟

من الفجر كنت في مكتب هبة عنايت.. انتظرته ساعة وبعض الساعة، وقبل أن يجلس على مكتبه، هرعت إليه:

– لم أستطع إعادة الكتابة أفضل من ذلك، من فضلك أين الخطأ فيها؟

جلس على مقعده، ونظر إليّ متأملاً، ثم قال بهدوء:

– ولا نقطتان على التاء المربوطة.. طالما تعرف تكتب.. لا تدع أحداً يكتب لك النقطتين.

وسألني:

– هل تعرف الفرق بين التاء المربوطة والهاء؟

هززتُ رأسي:

– بالتأكيد.

– طيب.. أقعد هناك وضع النقطتين على كل تاء مربوطة.

ولم يحدث أن نسيت النقطتين ولا الهمزات من لحظتها.

لكن لم أتخلص بسهولة من غواية الافتنان بالتعبيرات الفنية عالية البلاغة..

كنت أكتب تحقيقاً على مكتبي في روزاليوسف بعد واقعة هبة عنايت

بسنوات، كُنّا في نهاية الشتاء، الجو نصف بارد، ولا نغادر مكاتبنا قبل التاسعة أو العاشرة مساء، فجأة دخل الأستاذ صلاح حافظ محيياً، وما أدراك ما صلاح حافظ، هو أستاذ الأساتذة، «كتّيب» من طراز رفيع نادر، يمكن أن يصيغ مقالاً في علم الفيزياء تحفة أدبية في غاية الجاذبية، ملك الرشاقة في الأساليب، قادر على بث الحيوية والجدة في الكلمات والعبارات، كتب القصة القصيرة والمسرحية والرواية وسيناريوهات السينما والمسلسلات، وهو صانع صحف عبقري، فإذا كان بين البشر من يحوّل التراب إلى ذهب، فصلاح حافظ يحول الصحف الميتة إلى كيانات تعجّ بالحياة والصخب، ساحر كتابة وساحر صحافة، لكن الدنيا في بلادنا لها قوانين مقلوبة وشلل حاكمة.. ربما انحيازه للناس ضد السلطة وانحيازه للصحافة ضد الأيديولوجيا هما اللذان عرقلا حظه.

سألني الأستاذ «صلاح»:

– ماذا تفعل؟

قمتُ واقفاً:

– أكتب تحقيقاً عن تلوث نهر النيل.

قال:

– سأمرّ على رئيس تحريرك وأعود إليك.

عاد الأستاذ بعد ساعة وسألني:

– هل انتهيت؟

قلتُ بخجل:

– لم أكتب إلا بضعة أسطر في المقدمة، ولم أتزحزح عنهم منذ ساعتين.

أمسك بالأوراق أمامي، وقرأ وفي عينيه لمعتها المعروف بها، وقال ضاحكاً:

– هايل.. كتابة رائعة، جمل في غاية الفخامة، لكنك لن تكتب أكثر من هذا

لو قعدت سنتين وليس ساعتين.

تغيّرت ملامح وجهي، ودخلت في بعضها.. وحلت عليها الكآبة..

قال الأستاذ:

- فعلاً السطور رائعة.. لكن واضح أنك تحب نفسك أكثر من حبك لموضوعك.. أنت تستعرض مهاراتك الفنية.. اكتب ببساطة، جمال الكتابة يأتي تلقائياً.

ثم تركني ومضى..

جلستُ إلى مكتبي، وأنهيت عملي في أقلّ من ساعتين.

obeikan.com

(٢٧)
وتعرفت على عادل حمودة

كنا في منتصف إبريل، شهر الأكاذيب والزعابيب والأقنعة، لا هو شتاء ولا هو صيف، ولا هو ربيع أيضاً، خلطة من الحر الخفيف والأتربة والليل ذي النسائم الباردة إلى حد ما، وعلا صوت التكرز في أركان المعمورة: جان بول سارتر مات في باريس.

كانت صدمة طردي من «روزاليوسف» ما زالت مسيطرة على كياني، غمامة موحشة لفتني، وقذفت بي في بقعة سوداء مجهولة في الكون.

نظرتُ إلى خبر «سارتر» نظرة عابسة، وفجأة برقت الفكرة في ذهني مثل ومضة تنبئ أن نبض الحياة لم يختفِ بعد، دسست نفسي في ملابسي على عجل، وطرت إلى «روزاليوسف»، كانت «الوادي» منزوية في حجرة داخلية فسيحة من الدور الرابع، دخلت على الأستاذ هبة عنايت محيياً وسألته:

– ممكن أكتب عن سارتر؟

وصدرت «الوادي» في عدد مايو بعنوان كبير على غلافها: «ثلاثة عظماء رحلوا»، وهو نفس العنوان العام على ثلاث صفحات داخلية، بمقدمة منفصلة كتبها سكرتير التحرير عادل حمودة، ثم ثلاث مقالات متتابعة، كان نصيبي منها «سارتر.. ثورة حتى الموت»، و«ملك الرعب في قبضة ملك الموت»

عن المخرج الانجليزى آلفريد هتشكوك، لكن المقالات الثلاثة عليها اسم وحيد هو: عبد الستار الطويلة، أحد ألمع كتاب «روزاليوسف»، وكتب مقالاً عن جوزيف بروز تيتو الزعيم اليوغسلافي ذائع الصيت ذو المكانة الدولية البارزة، والذي مات أيضاً في نفس الشهر.

جُنّ جنوني، أسرعت إلى هبة عنايت ثائراً، قبل أن أنطق بحرف، قال بأدبه الجم وصوته الهادئ المجلل بطيبة صافية وعلى شفتيه ابتسامه مضيئة لا تفارقه:

– اجلس ولا تغضب.. الكاتب الجيد ليس موضوعاً ولا موضوعين ولا عشرة، انسَ «سارتر» و«هيتشكوك»، وابحث عما ستكتبه في العدد الجديد.

بدت علامات عدم الاقتناع جلية على ملامحي، فضحها الغضب الساكن فيها، حاول أن يواسيني:

– خطأ تقليدي دائم وغير مقصود.. وهو سهو من عادل حمودة.

ربت على كتفي وقال:

– أشوفك بعد يومين ثلاثة.

ساعات قبل أن أهدأ، كنت غريقًا يتعلق بقشة قبل أن يلفظ أنفاسه، فكيف أتحمّل فقد موضوعين عن فيلسوف أهاج الدنيا لخمسين سنة بكتاباته خارج المألوف، ومخرج عبقري أرعبها بأفلامه المخيفة.

ولم أغادر، واتجهت إلى مكتب عادل حمودة.

عادل حمودة أكثر نجوم «روزاليوسف» الشباب لمعاناً وتوهجاً، طبق طائر يحلّق من موضوع إلى موضوع بسرعة البرق، مهموم بالنجاح واللمعان بقدر همه بلقمة العيش، لا يعترف بالمزاج الفني وبالهواية، محترف بالفطرة، أو شرب العمل المحترف من أستاذه المباشر صلاح حافظ، صلاح حافظ أيقونة الصحافة المصرية التي لا مثيل لها، القديس الذي يبث التفاؤل والحماس والحب في كل ما يحيط بها، صانع الصحف الذي لا يجاريه فيها صانع مهما كانت الأسماء

والصفات، لكن الدنيا حظوظ، والقديس يمنح ويبذر ويزرع ويصنع ويعلم ويمضي في حال سبيله كأنه لم يفعل شيئاً، ولا ينتظر حتى كلمة شكر.

حين تولى صلاح حافظ رئاسة تحرير «روزاليوسف» كان توزيعها بضعة آلاف من النسخ، وتقدّم منه شاب بموضوع مترجم عن معرض أزياء في باريس، كتب له عنواناً شديد الجاذبية: «مؤتمر نزع الثياب في باريس»، كانت أيامها مفاوضات نزع السلاح على أشدّها بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.. أعجب صلاح حافظ بالصحفي الشاب، واصطفاه إلى جواره سكرتيرا لتحرير «روزاليوسف».

وتحت قيادة صلاح حافظ وفتحي غانم حلّقت «روزاليوسف» في مدارات توزيع لم تعرفها المجلات المصرية من قبل، ثم هبط بها الرئيس أنور السادات إلى تراب الواقع المحدود، والذي يقتات على كل ما يصنعه الإنسان، والإنسان ذاته، وخلع الكبيرين «حافظ» و«غانم» عن رئاسة التحرير.

ولأن الموهبة مثل النحل، لا تتوقف عن الطيران بين الأزهار وإنتاج العسل.. فاختار مرسي الشافعي، عادل حمودة سكرتيراً لتحرير «الوادي».

وعادل حمودة شاعر بموهبته ويعيشها كل لحظة، أنيق في ملابسه، يدخل إلى «روزاليوسف» لا يحدّث أحداً من الذين التحقوا بالمجلة بعد انتفاضة الخبز ورحيل صلاح حافظ، يتجه إلى مكتبه كمن يفر من شيء يطارده، حاملاً حقيبة يد جلدية صغيرة من تلك التي انتشرت في ذلك الوقت، وفي يده سلسلة مفاتيح سيارة فيات ١٢٨.

دخلت عليه وبين أصابعه سيجارة «مارلبورو»، قلت:

– لماذا لم ينزل اسمي؟

حدّق فيَّ، لم ينطق كمن يسأل:

– من أنت؟

ثم تذكّر وأجاب:

– أنت لم تكتب اسمك أصلاً على الموضوع.

دعاني على كوب شاى، تبسّط معي في الكلام وقال:

– دعك من الأدب والفلسفة واشتغل صحافة.. أنت مشروع محقق شاطر.

من هذه اللحظة امتدّت خيوط صداقة بيننا، نمَتْ على مهل، وأخذت سنوات قبل أن تكتسب صفاتها، دعمها صداقتي السريعة مع الفنان الجميل جمعة فرحات، كانت صداقة قوية قد جمعت بينهما، عزّزها العمل والرحلات والسهرات الليلية مع نجوم «روزاليوسف» الكبار من كتاب ورسامين سواء في البيوت أو في محلات وسط البلد التي يؤمها الفنانون والمثقفون.

وكنا نلتقي ثلاثتنا: «جمعة» و«عادل» وأنا كل يوم ثلاثاء لسنوات، نتغدّى سوياً في وسط البلد، ونذهب إلى السينما، ونجلس ساعتين أو ثلاث في مقهى «زهرة البستان»، ونسهر ليلاً في «الجريون».

ولعبت هذه الصداقة دوراً في قراري بالرحيل عن «روزاليوسف» إلى «الأهرام»..

كنت متردداً وخائفاً، «روزا» مثل المسرح التجريبي الحر، يمكن أن تقدّم على خشبته نصاً عبثياً أو نصاً ارتجالياً أو نصاً تجريبياً، المهم أن تكون موهوباً، ويثق أساتذة هذا المسرح الخاص جداً بموهبتك، لن يسألوك ماذا تفعل؟، ولماذا لجأت إلى هذه الحيل الفنية؟

في جريدة «الأهرام» الأمر مختلف، فهي مثل المسرح الملكي البريطاني لها تقاليد وسمات كلاسيكية وعادات قديمة متوارثة وقواعد عمل صارمة، التجديد فيها بحساب، والخروج على النص باتفاق سابق وفي حدود متاحة، والدخول أصلاً بالملابس الرسمية..

قال لي عادل حمودة:

– لا معنى لترددك في الانتقال إلى «الأهرام».. اهرب من صراعات «روزا».

وفعلاً هربت، واكتشفت أن مساحة الحرية في «الأهرام» لا تقل عما تمتّعت به في «روزاليوسف»، لكن وفق تقاليد «الأهرام» وميثاق أخلاق صارم تلزم به نفسها ولا تحيد عنه.

بعد ثماني سنوات زاملني عادل حمودة في الأهرام هو وجمعة فرحات.

obeikan.com

obeikan.com

(٢٨)
ليلة مع الموت

هل لو كانت جدتي «تفيدة» حية كان مصير «عبد الرحمن» قد تبدل؟

نعم.. «لو» هذه تفتح باب الشيطان، ربما باب الجنون، ربما باب الشَّك، ربما باب الرذيلة، لكننا لا نستطيع أن نتخلى عنها أو نلقيها خلف ظهورنا، فنحن بشر ضعاف نفتّش عن شماعة نعلق عليها بعضاً من إحباطنا وكثيراً من وجعنا..

كانت جدتي «تفيدة» تقول دوماً:

– خذ بالك من يوم الجمعة، فيه ساعة نحس، احذر أن تُصيبك..

فأضحك ساخراً:

– الأيام كلها أيام ربنا، والجمعة يوم مبروك.

فتنهرني بعصاها:

– الولد أحمد ابن مدبولي سقط في بئر الساقية يوم جمعة، «محمود» ابن «ست أبوها» غرق في الرياح يوم جمعة، دار عمك «محروس» اتحرقت يوم جمعة..

فأقاطعها خارجاً من الدار:

– كفى يا ستي.. معقول كل مصائب الدنيا تقع يوم الجمعة.

وفاجأتني تلك الجمعة بعد رحيل جدتي عن الدنيا بأربعين سنة، انمحت فيها ملامحها من ذاكرتي، وإن ظلّ صوتها يرنّ أحياناً في أذني..

رنّ تليفوني المحمول قبل غروب الشمس، واقتحمنى صراخ زوجة أخي «كمال» مخيفاً:

– «عبد الرحمن» راح يا أستاذ..

«عبد الرحمن» الابن البكر لأخي «كمال»، «كمال» ثالث أشقائي، يصغرني بسبع سنوات، منذ شبّ عن الطوق وهو يتصور في نفسه قدرات لا يمتلكها، وهذا أفسد عليه جوانب من حياته، فلم يكمل تعليمه، واكتفى بهواية جمع الكتب، وكلما اشترى كتاباً يوقع باسمه وتاريخ الشراء في أول صفحاته، ولم أضبطه مرة واحدة يقرأ كتاباً إلى آخره، مجرد صفحة أو بضع صفحات في عجالة، يزهق، يرصّ الكتاب على رفّ المكتبة كأنه يدفنه، ثم يدخل في مناقشات مع أصدقائي عنه وما يقصده المؤلف وما أخفاه بين السطور!

وحين فشل في التعليم، اتهم نظام التعليم بالقصور، ثم قال:

– عباس العقاد لم يحصل إلا على الابتدائية القديمة..

لكن أخي امتهن «الألوميتال» وأتقنه وأسس ورشة كبيرة، وراج عمله في التسعينيات، فالبناء على أشدّه في أحياء القاهرة الجديدة والعشوائيات، وحلّ «الألوميتال» محل الخشب في المطابخ والبلكونات والشبابيك وأشياء أخرى، لكن ميله إلى ادّعاء الثقافة وتردده على الندوات ولقاءات مثقفين على مقاهي القاهرة، أضاعت عليه تركيزه في شغله، فتعقبته المصاعب..

لكن ابنه «عبد الرحمن» كان مختلفاً، يبدو أن السماء صحّحت أخطاء الأب فيه، تفوّق في دراسته، ساعد أباه في الورشة وتعلّم «الصنعة»، ثم دخل كلية التجارة (إنجليش) ووصل إلى السنة النهائية، وأخذ دورات في برامج الكمبيوتر.

أحببت «عبد الرحمن» منذ رأيته أول مرة، كان في الثالثة من عمره، أخذته ليلة العيد لنشتري سوياً ملابس جديدة، تعلقنا ببعضنا، لكن انشغالاتي الكثيرة

وسفرياتي وعدم قدرتي على تحمل مناقشات أخي عن الحياة العامة لم تدع فرصة لقاء «عبد الرحمن» ممكنة إلا كل بضعة أشهر، نتقابل ونتكلم كأننا كنا مع بعض بالأمس..

كان يحدثني دوماً عن أحلامه، عن إجادته اللغة الإنجليزية معتمداً على نفسه، عن عمله في وقت فراغه، وكم يكسب منه، ما يتمناه لأبيه الذي كبر وصار مريضاً غير قادر على العمل المتواصل، عن جهاد أمه في تنظيم الحياة وتدبير شئونها، عن خلافاتهم أحياناً مع صاحب الشقة التي يستأجرونها منذ أكثر من خمسة وعشرين سنة.. «عبد الرحمن» عمره ثلاثة وعشرين سنة.. عيناه لامعتان عسليتان كاشفتان لمكنون نفسه، ملامح أنيقة منفرجة دوماً على جسد رياضي مفرود، هادئ الطباع..

واقتحمني صراخ أمه..

أحسست بكارثة لم أتبين حدودها ساعتها..

– غرق.. كيف غرق؟ وأين؟ هاتوا لي رقم تليفون والد خطيبته..

«عبد الرحمن» شاب متدين، أحبّ فتاة، فلم يلتقِها إلا بعد أن خطبها، أبوها موظف حكومي، له شقة في العجمي.. دعاه لقضاء تلك الجمعة على شاطئ الهانوفيل..

غرق «عبد الرحمن» في شاطئ الهانوفيل، كان البحر هادئاً، أغراه إلى قدره، لم تمنعه لسعة البرد الخفيفة، وقف على حوافّ الشاطئ، المياه تجاوزت وسطه قليلاً، بينما يلوّح لخطيبته، انزلقت قدماه متراً إلى حفرة خبيثة، غطس فيها، ولم يقبّ، إلا بعد أن أخذ الموت السر الإلهي..

ارتديت هدومي، وربما لم أرتدِها، لا أعرف، أخذت سيارتي وبجواري أخي إلى الإسكندرية..

هذا كابوس، لي كوابيس مليئة بأحداث تراجيدية، قطعاً هذا واحد منها، لا

يمكن للسماء أن تتراجع عما فعلته، صححت أخطاء الأب في «عبد الرحمن»، فكيف يموت «عبد الرحمن» بهذه السهولة، حتى لو كان الموت بلا قلب وبلا ضمير؟!

في الطريق كبر أخي مائة و ربما مائتي عام، دخل كتفاه في بعضهما، انحنى ظهره، قصرت قامته، أنين، نحيب، صوت متحشرج يستنجد بخالقه:

– نار في قلبي يا رب، صاحبي وأخويا وابني وأبويا كلهم راحوا فيك يا «عبد الرحمن».

بشجاعة كاذبةٍ تافهةٍ حاولت أن أخفف عنه:

– مشيئة ربنا وعلينا الطاعة، الرسول مات أولاده صغاراً.. لا نملك من أمرنا شيئاً.. اقرأ القرآن يهدئ قلبك..

رنّ التليفون، علينا التوجه إلى نيابة الدخيلة، فالمحضر مفتوح، ولا يمكن غلقه إلا في وجود الأب..

وصلنا في التاسعة ونصف مساءً، راح وكيل النيابة يدوّن بقلم احمر سطورًا لم نقرأها، وقّع أخي عليها.. تحدث وكيل النيابة مع ضابط مباحث قسم الدخيلة، راجياً أن يسهّل لنا الحصول على تصريح الدفن، فحال أخي يصعب على الكافر، فهمت من الكلام الدائر أن وجود طبيب الصحة الآن مستحيل، فردّ وكيل النيابة:

– استدعِه وإن لم ينزل كلّمني.

ناول وكيل النيابة بطاقة «عبد الرحمن» لأخي، وضعها على صدره، وراح يضغط عليها يدور بها، كأنما يدسّها في قلبه.

نزلنا من النيابة مع أمين شرطة، كانت أم خطيبة «عبد الرحمن» أمام المبنى منهارة تنتحب، أمسكت أخي، وصرخت مائة مرة:

– ما قدرش أرجع من غيره.

سقط على الأرض.. أوقفناه وذهبنا إلى القسم، تعاملوا معنا بإنسانية وتعاطف، كتبوا بسرعة خطاباً إلى مكتب صحة سموحة المكتب الوحيد النوبتجي في الإسكندرية يوم الجمعة، ويبعد ثلاثين كيلومتراً عن القسم، وقالوا:

– روحوا هاتوا تقرير الطبيب الشرعي.

المسافة من الدخيلة إلى سموحة حنظل نشربه قطرة قطرة، نتخبط في عتمة الليل وعتمة الحزن الثقيل، وكان المكتب نفسه مظلماً إلا قليلاً، أيقظنا موظفيه من هدأة النوم، سلّمناهم الخطاب، صوّرنا أوراقاً ونماذج وبطاقات.. وقّعنا مستندات وسلّمونا تقريراً يفيد عدم وجود شبهة جنائية، وقالوا لنا:

– عودوا إلينا بقرار النيابة.

كانت عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل.

قال طبيب الصحة:

– نحن موجودون لحد ثمانية الصبح.

أسرعنا إلى قسم الدخيلة، زحام وحركة نشيطة، وجدنا ضابطاً برتبة ملازم أول، قرأ التقرير، طلب منا أن نستريح قليلاً حتى يُنهي الإجراءات..

مضت نصف ساعة.. عدت إليه مستفسرًا، قال:

– ننتظر تحريات المباحث، واستعجلتها من أجلكم مرتين.

صعدت إلى المباحث.. كانوا مشغولين مع رهط كبير من المشتبه فيهم، استأذنت في تقرير التحريات، كتبوه على عجل، وأخذت خطاباً إلى مكتب الصحة بقرار النيابة: استخراج تصريح الدفن إن لم تكن هناك شبهة جنائية.

وصلناه في الثانية والنصف صباحاً.. أخذنا التصريح، قال الطبيب في حرج:

– مائة جنيه رسوم.

دفعتها بلا إيصال، أليست «عفة» الطبيب مثل عفة البنت البكر يجب ألا تُخدش.. كيف له باستغلال أهل الموتى؟

في السادسة صباحاً كنا على باب المشرحة، لم أتحمّل المشهد الزلزال.. أغمضت عيني وهرولت خارجاً، ورحت أتلو قصار السور.

وصلنا في العاشرة إلى المقابر، دفناه، جاء ناحيتي أول المعزّين قائلاً:

– البقاء لله.

تبخّرت شجاعتي، انهارت مقاومتي، ودخلت في نوبة نحيب حادة وطويلة..

تجمّدت دموعي لكن قلبي ما زال موجوعاً.

الفهرس

أمي سر الحضارة	٥
زوجـــات أبي	١١
خالتي «مَنْبِية»	١٧
الحاجة «أمِ رجب»	٢٣
حكاية الأستاذ سمير	٢٩
جابر وسعدية	٣٥
ماسح الأحذية الذي هزمني	٤١
خلطة شبرا	٤٧
العيدية.. مهر أمي	٥١
«وحيد زمانه»	٥٧
بنت الحاج «عياش»	٦٣
فليسقط «العقّاد»	٦٩
لما تزوّجت «نادية» نمنا على الأسفلت	٧٥

obeikan.com

تهديد بفضيحة ٨١
مدرّس بنات ٨٧
صداقة ضائعة ٩٣
أستاذ الجامعة الذي هددته بالقتل! ٩٩
حكاية منسية ١٠٥
موعد في الفجر ١١١
أشغال شاقّة لذيذة ١١٩
مال سائب جداً ١٢٥
الرسالة الساحرة ١٣١
وحكى لي «مرسي» ١٣٧
بين النهدين ١٤٥
وأنقذني «هبة عنايت» ١٥١
أزمة التاء المربوطة ١٥٩
وتعرفت على عادل حمودة ١٦٥
ليلة مع الموت ١٧١

obeikan.com